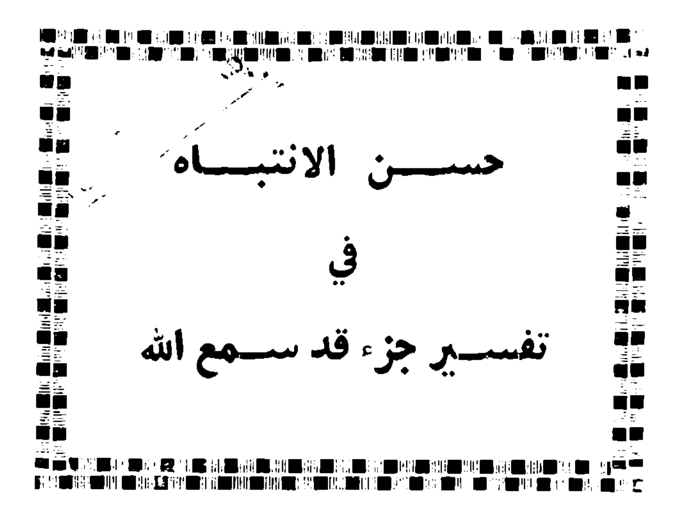
# حسن الانتباه
# في
# تفسير جزء قد سمع الله

محمد الشيخ طه الباليساني



١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م




محمد الشيخ طه الباليساني

١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحيمِ

الحمد لله والصلاة على رسوله وآله وصحبه ومن والاه .

## « سـورة المجـادلة »

سميت بالمجادلة لما فيها من مجادلة خولة رسول الله صلى الله تعـالى عليه وسلم . « مدنية ، نزلت بعـد المنافقـون وآياتهـا اثنتان وعشـرون آيـة » .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحيمِ

قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتي تُجادِلُكَ في زَوْجِها وَتَشْتَكي الى الله وَاللهُ يَسْمَعُ تَحاوُرَكُما انَّ اللهَ سَميعٌ عَليمٌ *

## « سبب نـزول الآيـة »

ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية روايات وخلاصة الجميع ما ذكره الخازن في تفسيره فقال : نزلت في خولة بنت ثعلبة وقيل اسمها جميلة وزوجها أوس بن الصامت أخو عبادة بن الصامت وكـان به لمم أي قلـة في العقل وكانت هي حسنة الجسم فأرادها فأبت عليه فقال لها انت عليّ كظهر أمي ثم ندم على ما قال وكان الظهار والايلاء من طلاق الجاهلية فقال ما أظنك الا قد حرمت عليّ فقالت والله ما ذاك طلاق فأتت رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وعائشة تغسل شق رأسه فقالت : يا رسـول الله ان زوجي أوس بن الصامت تزوجني وأنا شابة غنية ذات أهل ومال حتى اذا أكل مالي وأفنى شبابي وتفرق أهلي وكبر سني ظاهرني وقد ندم فهل من شيء تجمعني وأياه وتنعشني به فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : حرمتِ عليه ، فقالت : يا رسول الله والذي أنزل عليك الكتاب ما ذكر الطلاق وانه أبو

ولدي وأحب الناس الي ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : حرمت عليه ، فقالت : أشكو الى الله فاقتي ووحدتي قد طالت له صحبتي ونثرت له بطني ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : ما أراك الا قد حرمت عليه ولم أؤمر في شأنك بشيء فجعلت تراجع رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وكلما قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم حرمت عليه هتفت وقالت : اشكو الى الله وحدتي وفاقتي وشدة حالي وان لي صبية صغارا ان ضممتهم اليه ضاعوا وان ضممتهم الي جاعوا وجعلت ترفع رأسها الى السماء وتقول ، اللهم أشكو اليك اللهم فأنزل على لسان نبيك فرجي فكان هذا اول ظهار في الاسلام فمالت عائشة تغسل شق رأسه الآخر فقالت : أنظر في أمري جعلني الله فداك يا نبي الله فقالت عائشة : أقصري حديثك ومجادلتك أما ترين وجه رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وكان اذا نزل عليه الوحي أخذه السبات فلما قضى الوحي قال ادعي لي زوجك فتلا عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها » الآية « وتشتكي الى الله » وحدتها وفاقتها وشدة حالها « والله يسمع تحاوركما » مشتق من الحور وهو الرجوع والتحاور لا يكون الا بين اثنين أو أكثر فيقال تحاور القوم اي تراجعوا وتحاور زيد وعمرو أي تراجعا وهنا معناه مراجعتكما الكلام فهي تقول والرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يرد عليها فالله سمع هذه المحاورة وعلل ذلك بقوله « ان الله سميع » اي بكل قول وصوت فسمع تحاوركما « بصير » بكل شيء فيبصر حال خولة بنت ثعلبة وفاقتها ولذلك أنزل حكم الظهار فان أحكام القرآن ما كانت تنزل الا اذا دعت الحاجة اليها أي اذا حدثت حادثة فيحتاج الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم الى بيان حكم الله تعالى فيها والرسول حينما يقول لخولة ما أراك الا قد حرمت عليه كان حكما وفق ما جرى عرف القوم عليه فانه كان لا يبطل عرفا حتى يؤمر من الله تعالى بأبطاله ولذا قال العلماء ان ابطال هذا العرف لا يعد نسخا فان النسخ انما يقال في مقابلة الشرائع ويمكن ان يقال ان كان هذا العرف من بقايا أحكام سيدنا

ابراهيم واسماعيل فيعد نسخا والا فلا . حيث كانت فيهم امور من بقايا دين ابراهيم واسماعيل عليهما السلام الا ان قوله تعالى فيما بعد « وانهم ليقولون منكرا من القول » اي ما لا حقيقة له « وزورا » أي كذبا يدل على ان الظهار لم يكن من أحكام الله تعالى في الشرائع السابقة كلها والا لما سمى منكرا . ثم ان من عادة الله تعالى في القرآن الكريم انه حينما يريد أن يبطل عرفا ترسخ في نفوس القوم يمهد قبل ابطاله بذكر حجة تقنع اصحاب العقول بأنه باطل وذلك مثل ما فعل حينما أبطل نظام التبني فانه مهد تمهيدا لذلك فقال في سورة الاحزاب الآية ( ٤ ــ ٥ ) « ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم وما جعل ادعياءكم ابناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ❋ ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فان لم تعلموا آباءهم فأخوانكم في الدين ومواليكم وليس عليكم جناح فيما أخطأتم ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفورا رحيما ❋ » ثم بعد آيات كثيرة في نفس السورة وفي الآية /٣٧ يقول تعالى « واذ تقول للذي انعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي ما في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق ان تخشاه فلما قضى زيد منها وطرأ زوجناكها لكي لا يكون للناس حرج في أزواج ادعيائهم اذا قضوا منهن وطراً وكان آمر الله مفعولا ) .

وفي هذه السورة حيث أراد تعالى ان يبطل نظاما ترسخ في القلوب وهو حرمة الزوج التي ظاهر منها زوجها حرمة مؤبدة مهد لذلك بذكر برهان يدل على بطلان هذا العرف وهذا النظام فقال تعالى :

« أَلَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسائِهِمْ ما هُنَّ أُمَّهاتِهِمْ ان أُمَّهاتُهُمْ إِلا اللائي ولَدْنَهُمْ وإِنَّهُمْ لَيقولونَ مُنْكَراً مِنَ القَوْلِ وَزوراً وانَّ اللهَ لَعَفُوٌ غفورٌ » .

« الذين يظاهرون » اي الذين يعاملون معاملة الظهار « منكم » أيها المسلمون . والظهار هو أن يقول الرجل لامرأته أنت علي كظهر أمي وهنا شيء محذوف أي ظهرك كظهر أمي بمعنى ركوبك كركوب أمي والمراد بالركوب الجماع فمعناه جماعك عليَّ حرام كجماع أمي .

« من نسائهم » ان فسرت من نسائهم بالفعل فيختص بالظهار بمن كـانت زوجاً للمظاهر بالفعل فلو قال لامرأة أجنبية أنت مني كظهر أمي ثم تزوجها فليس بظهار وهذا رأي بعض العلماء وان فسرت النساء على العموم سواء كانت زوجا للمظاهر بالفعل ام لا لو قال هذا القول لاجنبية ثم تزوجها كـان ظهارا ايضا وهذا رأي آخر والاول أصح •

« ما هن » اي ليست أزواجهم « أمهاتهم » اي كأمهاتهم في الحرمة عليهم « ان أمهاتهم » اي ليست امهاتهم المحرمة عليهم الا اللائي ولدنهم كالوالدة ووالدة من ولدك الى حواء وآدم « وانهم » أي الذين يجعلون أزواجهم محرمة بالظهار « ليقولون منكرا من القول » أي قولا منكرا اي لا حقيقة له في الشرائع « وزورا » اي كذبا لان أزواجهم لا تصير كأمهم في الحرمة عليهم « وان الله اعفو » أي كثير العفو فعفا عنكم فلم يحرم ازواجكم عليكم بقولكم هذا « غفور » كثير المغفرة فغفر عـن كذبهم هذا • وأوجب عليكم كفارة مقابل ذلك الكذب لانه بمنزلة اليمين واليمين توجب الكفارة عند الحنث وذكر الله تعالى مقدار الكفارة فقال : :

« وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ » •

« والذين يظاهرون » اي يوقعون الظهار « من نسائهم ثم يعودون لما قالوا » في معنى هذه الفقرة أقوال كثيرة عند الفقهاء والاصح منها هو ان الظهار كالايلاء فالايلاء هو حلف الرجل على عدم مواقعة امرأته مدة اكثر من اربعة اشهر فبعد مضي اربعة اشهر يجب على المولى اما مواقعتها واعطاء الكفارة عـن حلفه او ان يطلقها فان لم يطلقها طلق عليه القاضي • والظهار هو تحريم الرجل مواقعة امرأته الى الابد فيجب عليه أحد الامرين اما ان يطلقها لتستريح المرأة او ان يكفر عـن تحريمه هذا قبل ان يجامعها فمعنى الآية « ثم يعودون » اي ثم يريدون العودة « لما قالوا » اي لما قالوا فيه بالتحريم وهو الجماع فبعد ارادتهم هذه يجب عليه احد الاشياء الاتية على الترتيب اي لا يجوز له العدول عـن السابق الى اللاحق الا بعد العجز عن السابق

وهذه الاشياء هي ما قال تعالى « فتحرير رقبة » اي جعل عبد حرا ان كان له عبد والا يجب ان يشتري عبدا فيعتقه « من قبل ان يتماسا » اي من قبل الوقاع « ذلكم » اي ذلكم الحكم ما « توعظون به » اي تؤمرون بــه « والله بما تعملون خبير » فينتقم منكم اذا خالفتم ذلك الحكم •

« فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فصيامُ شَهْرينَ مُتتابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أنْ يَتماسَّا فَمَنْ لمْ يستطِعْ فإِطعامُ ستّينَ مسْكيناً ذلكَ لِتُؤْمنــوا بالله وَرَسولِهِ وَ تلْكَ حُدودُ الله وللْكافرينَ عَذابٌ أليمٌ » •

« فمن لم يجد » اي فمن لم يجد العبد ليعتقه وذلك بأن لا يوجـــد العبد كما في زماننا هذا او وجد ولا يجد قيمته او وجد قيمته ولكـــن لا يباع بقيمة المثل « فصيام شهرين » اي يجب عليه حينئذ صيام شـــهرين « متتابعين » لا يفصل بين ايام شهرين بالفطر الى ان يكمل الشـــهرين فأن فصل بدون عذر أستأنف وبطل ما صامه قبل وان كان بعذر يبنى على ما مضى عند مالك وقال ابو حنيفة يستأنف وعند الشافعي القولان « من قبـــل ان يتماسا » أي يجب ان يكمل شهرين قبل الجماع « فمن لم يستطع » أن يصوم « فاطعام ستين مسكينا » اي يجب عليه حينئذ ان يطعم ستين مســـكينا فيشبعهم غداء وعشاء أو يعطيهم قيمة ذلك ويجب اكمال عدد ستين مسكينا فلو أطعم مسكينا واحداً ستين يوما أو وزع قيمته عليه في ستين يوما لم يجز عند الشافعي ومالك وعند أبي حنيفة جائز كما وان القيمة لا تجوز الا عند أبي حنيفة •

تنبيـــه :

لم يذكر بعد الاطعام قوله « من قبل أن يتماسا » فهل يجوز الجماع قبل الاطعام اذا كان واجبه الاطعام أم لا فعند أبي حنيفة يجوز حيث لم يقيد بقبل المس في الاطعام ولا يجوز عند مالك لان القيد موجود بدلالة السابقين ووافق الشافعي مالكا ويجوز التمتعات الاخرى غير الجماع قبل التكفير عند الجمهور •

« ذلك » أي فرضت الكفارة عليكم « لتؤمنوا بالله » أي ليظهر ايمانكم بالله باطاعة أوامره والاجتناب عما نهى عنه « وتلك » أي وما ذكر من الاحكام

« حدود الله » اي حدود حدها الله تعالى ولا يجوز تجاوزها ومخالفتها « وللكافرين » بهذه الاحكام والتاركين لها « عذاب اليم » اي عذاب مؤلم جدا .

**سؤال :**

لماذا قلت والتاركين لها وهل يكفر الانسان بترك الواجبات أم لا ؟

**الجواب :**

عند البعض يكفر المسلم بترك الواجب مطلقا فعندهم معنى هذه الآية « وللكافرين » اي التاركين لهذه الاحكام عذاب مؤلم ، وعند الجمهور لا يكفر الا اذا كان تركه للواجب لعدم الاعتقاد به فحينئذ يكفر . فمعنى الآية « وللكافرين » اي التاركين لهذه الاحكام لعدم ايمانهم بها « عذاب أليم » وعندي ان الكفر جاء مقابل الايمان وجاء مقابل الاسلام فالاول بمعنى عدم الاعتقاد « فيكون كافرا والثاني بمعنى ترك العمل فيكون مؤمناً لا مسلما لان الاسلام بمعنى الانقياد والعمل ويسمى هذا الكفر الكفر في الاعمال والاول الكفر في الاعتقاد . والكفر بمعنى ترك الاعمال . ان كان تركا للاعمال كلها فذلك التارك لا يكون مسلما وان كان في البعض فلا يكون مسلما كاملا بل ناقصا ولا يسلب منه الاسلام بالكلية .

**خاتمة :**

لا ينعقد الظهار الا من بالغ عاقل واركانه زوج وزوجة وصيغة ، وصيغته كما سبق وهو ان يقول الرجل لامرأته أنت علي كظهر أمي وهذه الصيغة مجمع عليه بأنه ظهار وأما اذا بدلت هذه الصيغة كأن يقول كرأس أمي أو بطنها أو فخذها او غير ذلك ففي كونه ظهارا خلاف . وكذا ان بدل الام كأن يقول كظهر بنتي او أختي أو خالتي أو عمتي أو غيرهما مما حرم نكاحها حرمة مؤبدة فمختلف فيه وليس ظهارا عند الكل . هذا . وإن الكلام في الظهار ومسائله والاختلاف فيها طويل جدا لا يمكن تفصيله هنا ومن أراد المزيد فعليه مراجعة كتب الفقه المؤلفة لذلك وليأخذ رأي كل مذهب من كتب ذلك المذهب .

**تمهيد :**

قد قيل قديما ان للعادة سلطانا فالعادات والعرف والتقاليد لها سلطانها على قلوب الامم والشعوب سيما اذا اصبحت تلك الاعراف عقيدة ولا يستطيع أن يزيلها الا الانبياء والمرسلون والدعاة الذين يتحملون كل الاذى في سبيل نشر دعوة الله وبسط سلطان الشريعة فحينما نزلت آيات الظهار وغيرت حكمه السائد بين القوم هاج الذين في قلوبهم مرض والمنافقون الذين كانوا لا يضيعون أي فرصة لمعارضة هذا الدين وتشكيك الناس فيه والمدينة كان فيها اليهود والمنافقون فجعلوا هذا الحكم وسيلة لمعارضتهم ودعايتهم ضد الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ومعاداتهم له فأنزل الله تعالى وقال :

« إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ » .

« ان الذين يحادون » اي يعادون الله تعالى وفسر معاداة الله بقوله « ورسوله » فأن معاداة الله هي عبارة عن معاداة رسوله فأنه هو الذي يبلغ أحكامه وينشر شريعته فمعاداة الله يظهر بمعاداة الرسول فهي هي لا غيرها .

« كبتوا » اي أذلوا « كما كبت الذين من قبلهم » وهم الامم السابقة والذين خالفوا رسلهم وكذبوهم « وقد انزلنا » على رسول الله « آيات بينات » أي احكاما واضحات توافق العقل والمنطق والمصلحة والحكمة « وللكافرين » بهذه الاحكام وغير المطبقين لها « عذاب مهين » أي عذاب يهينهم ويخزيهم في الدنيا والاخرة وقد فعل الله تعالى باليهود والمنافقين الذين حادوا الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فأجلوا عن ديارهم وقتلوا ولم يبق لهم اي كيان وهكذا يفعل الله تعالى بكل من انحرف عن دين محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وابتعد عن شريعته فيذلهم ويخزيهم .

« يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جميعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بما عَمِلوا أحْصَاهُ اللهُ وَنَسُوهُ والله على كلِّ شيءٍ شَهِيدٌ »

« يوم » اي يعذبون هذا العذاب المهين « يوم يبعثهم الله » أي يوم يحييهم الله ( جميعا ) أي كلهم مجتمعين « فينبئهم » أي يخبرهم « بما عملوا » اي بكل ما عملوا في الدنيا « احصاه الله » أي حفظ الله عملهم كله « ونسوه والله على كل شيء » من أعمالهم « شهيد » أي مطلع لا يغيب عنه شيء منها .

ويجزيهم على وفاق علمه بها .

سؤال : هنا يقول تعالى نسوه أي نسوا أعمالهم وقال تعالى في سورة القيامة « بل الانسانُ عَلى نفْسِهِ بصيرة » اي شاهدة على أعمالهم فكيف التوفيق .

الجواب :

انهم نسوا أعمالهم الى ان أخبرهم تعالى بأعمالهم وسلم اليهم سجل اعمالهم فحينئذ يتذكرون أعمالهم ويطلعون عليها ثم أكد تعالى على انه عالم بكل شيء وشهيد عليه فقال :

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما في السموات وما في الأرضِ ما يكونُ مِنْ نَجوى ثَلاثَةٍ ألاّ هوَ رابعُهُمْ ولا خَمسةٍ الاّ هوَ سادِسُهُمْ ولا أدْنى من ذلكَ ولا أَكْثَرَ ألا هوَ مَعَهُمْ أيْنَ ما كانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بما عملوا يَومَ القيامَةِ انّ الله بكلّ شيءٍ عليمٌ » .

« ألم تر » اي الم تعلم وهذا الاستفهام للانكار وانكار النفي اثبات اي انك تعلم يقينا « ان الله يعلم ما في السموات » كلها « وما في الارض » وان علمه محيط بكل شيء الى حد انه « ما يكون » اي ما يوجد ويحدث « من نجوى ثلاثة » اي من تسارهم اي المكالمة الخفية بينهم « الا هو رابعهم » في العلم بما يتسارون فيه » « ولا خمسة » اي ولا نجوى خمسة أشخاص « الا هو سادسهم » في العلم بما يقولون « ولا أدنى » أي ولا أقل من ذلك كمناجاة اثنين فهو ثالثهم « ولا أكثر » اي من ذلك الى ان يتناهى العدد « الا هو معهم » في العلم بما يقولون أو يمكرون ويدبرون « ثم » أي بعد العلم بما يقولون « ينبئهم بما عملوا » من النجوى أو غير ذلك من

الاعمال ويجزيهم عليها ان خيراً بخير وان شراً فشر وذلك الجزاء « يوم القيامة » يقع « ان الله بكل شيء عليم » لا يخفى عليه شيء ثم أثبت الله تعالى انه يعلم نجوى الناس وما يقولونه فيما بينهم خفية دون ان يطلع عليهم آحد وانه بكل شيء عليم أثبت ذلك حيث أخبر عن نجوى اليهود وما كانوا يقولون فيما بينهم سراً ، وأخبر عن تحيتهم التي كانوا يحيون بها رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وما يقولون بعد ذلك فقال جل وعلا .

« أَلَمْ تَرَ الى الّذينَ نُهُوا عنِ النَّجْوى ثُمَّ يعودونَ لِما نهوا عَنْهُ ويتناجَوْنَ بالاثْمِ والعدْوانِ وَمعْصيَةِ الرسولِ واذا جاؤوكَ حَيّوكَ بما لَمْ يُحيّكَ به الله وَيقولونَ في أنْفسُهِمْ لولا يُعَذّبنا الله بما نَقولُ حَسْبُهُمْ جَهنّمُ يَصْلَوْنَها فبِئْسَ المصيرُ »

« الم تر الى الذين نهوا عن النجوى » نزلت في اليهود والمنافقين فأنهم كانوا يتناجون فيما بينهم ويتغامزون حينما كانوا يرون المؤمنين وكانوا يقولون في نجواهم ويشيرون بغمزاتهم الى ان غزاتهم غلبوا وان أقاربهم قتلوا فنهاهم الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم عن ذلك فلم ينتهوا بل عادوا لمثل ذلك كما قال تعالى « ثم يعودون لما نهو عنه » من النجوى والتغامز ضد المؤمنين فيفعلونها « ويتناجون » فيما بينهم « بالاثم » اي بفعل المعاصي « والعدوان » وبالعداء للمؤمنين « ومعصية الرسول » ومخالفته في المعاهدة التي عاهدوها معه وكانوا ايضا « اذا جاءوك حيوك بما » اي بتحية « لم يحيك به الله » فكانوا يقولون السام عليك والسام هو الموت « ويقولون » سرا وخفية « في أنفسهم » دون ان يعلم أحد « لولا يعذبنا الله بما نقول » من هذه التحية والاستهزاء به لو كان رسولا فحيث لا يعذبنا الله به فليس برسول فأجابهم تعالى فقال « حسبهم جهنم » اي يكفيهم عن عذابنا لهم جهنم التي ( يصلونها ) يدخلونها نتيجة هذه التحية وتناجيهم ضد المؤمنين ورسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم . « فبئس المصير » لهم هي جهنم . ثم بعد ان ذكر الله تعالى من ذم تناجي اليهود والمنافقين ذكر ان التناجي السيء منهي عنه للمؤمنين ايضا فقال :

« يا أيّها الذيّن آمَنوا اذا تناجيْتُمْ فلا تَتَناجَوا بالاثْمِ

وَالعدْوانِ ومَعْصِيَةِ الرسولِ وتناجوْا بِالبرِّ والتقوى واتقوا الله الذي اليه تُحْشرون » •

« يا أيها الذين آمنوا » بالله ورسوله واعتنقتم الاسلام « اذا تناجيتم » أي اذا اردتم أن تتناجوا « فلا تتناجوا بالاثم » اي بما هو اثم ومعصية « والعدوان » ومعاداة بعضكم بعضاً « ومعصية الرسول » اي ومخالفة رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم • والعمل بما يخالف شرعه « وتناجو بالبر » بالامور المحبوبة عند الله كاصلاح دات البين او التدبير لرفع مظلمة وازالة منكر واقامة العدل والاحسان وكل ما فيه الخير « والتقوى » والامور التي فيها الاجتناب عن الباطل « واتقوا الله » في النجوى وفي كل أمر « الذي اليه تحشرون » فيحاسبكم على ما فعلتم ويعاقبكم ان كان شرا ويثيبكم ان كان خيراً •

« اِنَّما النَّجوَى مِنَ الشَّيطانِ لِيحْزن الَّذينَ آمنوا وَلَيْسَ بِضارِّهِمْ شيئاً اِلا باِذْنِ الله وَعَلى اللهِ فَلْيَتَوكَل الْمُؤْمنونَ » •

« انما النجوى » بالسوء « من الشيطان » من دسائس الشيطان يحمل المنافقين عليه « ليحزن الذين آمنوا » وليس من حق المؤمنين أن يحزنوا به حيث « وليس » النجوى « بضارهم » بما يضرهم شيئا « الا بأذن الله » وارادته وتقديره « وعلى الله » فقط لا على غيره « فليتوكل المؤمنون » به فان كل شيء بخلقه وتقديره فلا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم • ثم لما كان نهي المؤمنين عن النجوى السيء متضمناً ومستلزماً لأن يكون الأجتناب عنه من آداب الاسلام الحسنة انجر الكلام الى ذكر آداب أخرى والتي تبث الحب والألفة بين المسلمين فقال تعالى :

( يا أَيُّها الذين آمَنوْا اذا قيلَ لَكُمْ تَفَسحوْا في المجالسِ فافسَحوْا يَفْسِحَ الله لَكُمْ واِذا قيلَ لَكُمْ انْشُزوا فانْشزوا يَرْفَعْ الله الَّذِيْن آمَنوا مِنْكُمْ والذّين أُوتوْا العِلْمَ دَرَجاتٍ والله بِما تَعْملونَ عَليم" •

« يا أيها الذين آمنوا » بالأسلام واعتنقوه ان من الآداب الحسنة والتي تبث الألفة والمحبة بين المسلمين والتي يجب على المسلمين والمؤمنين ان

يتأدبوا بها هو انه « اذا قيل لكم » عند الازدحام والضيّق وعدم المكان للقادم « تفسحوا » اي توسعوا « في المجالس » بأن يجمع الانسان نفسه ليجلس انسان بجنبه « فأفسحوا » اي فتوسعوا وليفسح بعضكم المجال ليتمكن القادم من الجلوس فاذا فعلتم ذلك ووسع بعضكم لبعض « يفسح الله » اي يوسع الله لكم قيل في قبوركم وقيل في قلوبكم وقيل في الدنيا والآخرة وعندي ان المراد كلها حيث لا تنافي بينها وقد ذكر اللفظ عاماً فيحمل على كل ما يشمله حسب اللغة « واذا قيل لكم انشزوا » اي واذا احتاجت التوسعة الى القيام ثم الجلوس فان بذلك تكون التوسعة وقيل لكم انشزوا اي قوموا للتوسعة «فانشزوا» اي قوموا ليفسح المجال للقادم لان يجلس «يرفع الله الذين آمنوا» اي ان استعملتم هذه الآداب «يرفع الله الذين آمنوا » بالأسلام وتأدبوا بآدابه يرفعهم في الدنيا والآخرة « والذين أوتوا العلم درجات » أي درجات كثيرة في الثواب والأجر في الآخرة ويفهم من هذه الآية ان بعض الناس كانوا يتكاسلون عن الأفساح في المجالس بالحركة أو القيام لافتخارهم بنسب أو غنى وكان يترفع عن ان يجلس بجنبه من دونه في النسب أو الغنى فنبه الله تعالى انّ الرفعة ليست بالنسب ولا بالمال وانما هي بالأيمان والأعمال الصالحة والتقوى والعلم النافع وأدبهم تعالى بقوله « يرفع الله الذين آمنوا » .. الخ « والله بما تعملون » في الدنيا من الأفتخار والتعالي على الناس « خبير » عالم فيعاقبكم على ذلك يوم القيامة بالنار او في الدنيا بالذل والصغار أو فيهما جميعاً .

**حكاية :**

يقال ان رجلا رأى شخصاً يطوف بالبيت ومعه رجال يطردون له الناس من المطاف وبعد سنة أو أكثر رآه في سوق بغداد يستجدي ويتكفف الناس فقال له الست الذي كنت تطوف بالبيت ومعك رجال يطردون لك الناس فأجاب : نعم تكبرت في مقام يتذلل فيه الناس فأذلني الله تعالى في مكان يتكبر فيه الناس .

**تمهيد :**

كان الناس يناجون رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بكثرة

الى حد شق ذلك على الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم . هـذا من جهة ومن جهة أخرى كان من الناس من يناجي الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم لمجرد أن يتباهى بذلك ويفتخر ويقول ناجيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وفيهم من يناجيه نفاقاً ومنهم من يناجيه صدقاً واخلاصاً وخيراً فأراد الله تعالى ان يخفف عن الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وأن يميز الذين يناجونه صدقاً واخلاصاً من الذين يناجونه تباهياً أو نفاقـاً فامر تعالى وقال :

« يا أَيُّها الَّذين آمَنوا اِذا ناجَيْتُمْ الرَّسولَ فقَـدِّموا بَيْنَ يَدَيْ نجْواكُمْ صَدقَةً ذلِكَ خيْرٌ لكُمْ وأطهَرُ فأِنَّ لمْ تجِدوُا فأنَّ الله غفورٌ رَحيمْ » .

« يا أيها الذين آمنوا » بالله ورسوله « اذا ناجيتم الرسـول » اي اذا اردتم ان تناجوه « فقـدموا » الى الفقراء « بين يدي نجواكم » اي قبـل نجواكم « صدقة ذلك خير لكم » لانكم تنالون بذلك أجر الصدقة وشرف المناجاة معاً ثم استثنى الله تعالى من هذا الحكم الفقراء فقال « فان لم تجدوا » ما تقدمون لفقركم وفاقتكم « فان الله غفور » غفر لكم عن تقديم الصدقات ايها الفقراء « رحيم » بكم حينما عفاكم عن هذا الحكم ثم بعد ان مضى مدة وتميز الصادقون المخلصون عن غيرهم من الذين لم يتركوا المناجاة خوفاً من الصدقة أو بخلاً بها وعلم الناس كلا الفريقين وافتضح المنافقون والمتباهون خفف الله تعالى عن المسلمين وألغى هذا الحكـم المؤقت والذي كان لحكمة وقتية فقط فقال :

« أأَشْفقْتُمْ أنْ تُقَـدِّموا بَيْنَ يَديْ نجواكُمْ صدقاتٍ فأِذْ لَمْ تَفْعَلوُا وَتابَ اللهُ عَليْكُمْ فأقيموا الصّلاة وآتوُا الزَّكاةَ وأَطيعُوا اللهَ وَرَسولَه واللهُ خَبيرٌ بما تَعْملوُنْ » .

« أأشفقتُمْ » اي أخفتم من الفقر اذا بقي هذا الحكـم واسـتمررتم على الصدقة قبل المناجاة ( فاذ لم تفعلوا ) اي لم يقدم هذه الصدقة كلكم وترك البعض المناجاة خوف الفقر ( وتاب الله عليكم ) اي عفا عنكـم مـن هذا الحكم وأزاله عنكم وبدلا عن ذلك فاقيموا الصـلاة أي داوموا على

اقامة الصلاة « وآتوا الزكاة » الى مستحقيها « وأطيعوا الله » وحيث لا يمكن اطاعة الله الا عن طريق رسوله فانه هو الآخذ للأوامر من الله قال تعالى « ورسوله » اي واطيعوا رسوله فان اطاعته اطاعته فأطيعوه في الحكم وفي ازالة الحكم وتبديله بحكم آخر كما هنا حيث بدل الصدقة قبل النجوى بوجوب الزكاة •

ذكر ابن كثير ان العوفي قال عن ابن عباس انه قال : كان المسلمون يقدمون بين يدي النجوى صدقة فلما نزلت الزكاة رفع هذه الصدقة انتهى • وفي ذلك فائدة فان صدقة النجوى كانت مشروطة بالنجوى فكان البخلاء يتركون النجوى خوف الصدقة فجييء بالزكاة بدلها بدون شرط لكي لا يستطيع البخلاء وغيرهم الفرار منها ليستفيد الفقراء « والله خبير بماتعملون » فيجازيكم حسب اعمالكم • ثم وان من الأدب الأسلامي الكبير والمهم جداً ان لا يتولى المؤمنون الكافرين وكان قوم يعملون ذلك فأنذرهم الله تعالى اشد انذار فقال :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ » •

« الم تر الى الذين » وهم اناس من الأوس والخزرج اسلموا لا عن عقيدة وانما ارادوا نفاقاً ودخولاً في الإسلام ظاهراً لجلب منافع والأمن من بطش المسلمين وكانوا يوالون اليهود وينقلون اسرار المؤمنين اليهم ففضحهم الله تعالى وقال « تولوا قوماً غضب الله عليهم » وهم اليهود وتولوهم عداءً للاسلام لا حباً لليهود لانهم « ما هم » اي ليسوا هم « منكم » من المسلمين فان كل من يوالي الكافرين ضد المسلمين فليس بمسلم « ولا منهم » اي وليس هؤلاء من اليهود لان دينهم غير دينهم حيث كانوا وثنيين وقوميتهم لم تكن مثل قوميتهم ، وانما ارادوا بموالاتهم الأنتفاع من الطرفين « يحلفون » لك يا محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بأنهم لم يخونوكم ولم يذموكم « على الكذب » لأن قولهم هذا الذي يحلفون عليه كذب فحلفهم كان على الكذب « وهم يعلمون » بأن ذلك كذب ، وهذا هو دأب المنافقين في كل

زمان يصادقون الطرفين المتعادين ويحلفون للطرفين كذباً لينتفعوا من الجانبين ولِيوقعوا العداء بينهما فيستفيدوا من ذلك •

« أعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذاباً شَديداً إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ »

« اعد الله » اي هيأ الله تعالى « لهم » لهؤلاء المنافقين « عذاباً شديداً » في الدنيا وفي الآخرة وذلك حيث « انهم ساء » اي قبح « ما كانوا يعملون » من النفاق والحلف على الكذب عمدا •

اِتَّخَذوا أيْمانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سبيل الله فَلَهُمْ عذابٌ مُهينٌ » •

« اِتخَذوا » اي جعلوا « أيْمانَهُمْ » الكاذبة « جُنَّةً » أي سبباً لوقاية أنفسهم وأموالهم وأولادهم « فصدّوا » فمنعوا كثيراً من الناس « عن سبيل الله » أي عن الاسلام والعمل له او اعتناقه والدخول فيه « فَلَهُمْ » فبسبب هذا العمل لهم « عذاب مهين » يذلهم ويهينهم •

تنبيه :

إن هذه الآية وإن وردت في المنافقين في عصر النبوة الا انها عام لكل زمان فان في كل وقت توجد جماعة يوالون ويتصادقون مع قوى الكفر ويصيرون عملاء وأجراء لهم ويسعون لاستيلاءهم على بلاد المسلمين فالدول المستعمرة لم يستطيعوا ان يدخلوا بلاد المسلمين إلا بعد ان استأجروا بعض من كانوا مسلمين اسما لا عقيدة فاتخذوهم جسراً وعلى متنهم عبروا الى بلادنا واستولوا عليها ولا يزال أمثال هؤلاء يعملون لحساب الأجنبي الكافر وبقاء حكمهم في البلاد فهؤلاء منافقون واعد الله لهم عذابا شديدا انهم ساء ما يعملون الآن وفي المستقبل وحيث ان المنافقين يعملون هذه الأعمال لأجل اموالهم وأولادهم قال تعالى :

« لَنْ تُغْنيَ عَنْهُمْ أموالُهمْ ولا أوْلادُهمْ مِنَ الله شَيئاً اُولئكَ أصحابُ النّارِ هُمْ فيها خالِدونَ » •

« لن تغني عنهم » اي لن تدفع عنهم « أموالهم » جميع اموالهم « ولا أولادهم » اي ولا كل اولادهم « من الله » اي من قبل الله « شيئاً » من

العذاب والذل والهوان بل « أولئك أصحاب النار » أي اهل النار « هم فيها » اي في النار « خالدون » لا يخرجون منها أبداً .

« يوم يَبْعَثُهُمُ الله جَميعاً فَيَحْلفونَ لهُ كما يحْلِفُونَ لكمْ وَيَحسَبونَ أنّهُمْ على شَيْءٍ أَلا إنّهُمْ هُمُ الكاذِبونْ » .

« يَومْ يَبْعَثُهُمُ الله » اي لن تغني ولن تدفع عنهم اموالهم ولا أولادهم شيئاً من عذاب الله « يوم يبعثهم » اي يحييهم « الله جميعاً » اي مجتمعين « فيحلفون له » اي لله تعالى كذباً « كما يحلفون لكم » في الدنيا « ويحسبون » أي ويظنون « انهم على شيء » اي انهم بهذا الحلف يحصلون على منفعة عند الله « ألا انهم هم الكاذبون » هنا وهناك فلا يفيد كذبهم شيئاً .

« اسْتَحوذَ عَلَيْهِم الشيطانُ فأَنْساهُمْ ذِكْرَ الله أولئكَ حِزْبُ الشيطانِ إلا إنَّ حِزْبَ الشَّيطانِ هُمُ الخاسِرونَ » .

بعد ان ذكر تعالى حال هؤلاء المنافقين من تولى الكافرين والحلف على الكذب ذكر ان سبب اعمالهم هذه هو انه « استحوذ » اي غلب « عليهم الشيطان » بوسوسته واحاط بعقولهم ولعب بها « فأنساهم ذكر الله » واحكامه والخوف منه « أولئك » اي هؤلاء وكل من اتصف بهذه الصفات « حزب الشيطان » اي اتباعه وجماعته « ألا » اي فلتعلموا « أن حزب الشيطان هم الخاسرون » لانهم باعوا الهداية بالضلالة والآخرة بالدنيا وأي خسارة اعظم من هذه . وبعد ان ذكر تعالى ان الذين يعادون الله ورسوله لهم عذاب مهين في الآخرة ذكر أنهم يذلون في الدنيا أيضاً فقال وعز من قائل :

« إنَّ الذّينَ يُحادّونَ اللهَ وَرَسولَهُ أُولئِك في الأذلّين » .

« ان الذين يحادون الله ورسوله » اي يعادون الله بعداوة رسوله ورفض شريعته « أولئك » اي كل من اتصف بهذه الصفة « في الأذلين » اي في القوم الأذلاء فيذلون وعلل ذلك بقوله :

« كَتَبَ الله لأَغْلِبَنّ أنا وَرُسُلي إن الله قويٌ عزيزٌ » .

« كتب الله » أي قدر الله وحكم حكماً هو أنه « لاغلبن أنا ورسلي » على اعدائنا حيث « ان الله قوي » ذو قوة عظيمة لا تتناهى « عزيز » غالب على أمره لا يمنعه في تنفيذ حكمه وارادته أحد ولا شيء من الأشياء •

ثم ذكر الله تعالى أدبا آخر من آداب الاسلام وهو أن المؤمن لا يجوز له ان يتحبب ويتودد ويتصادق مع من يعاند الله ورسوله وينحرف عن عقيدة الأسلام والعمل به وان كان ذلك المنحرف من أعز الناس وأقربهم اليه ومن لم يكن كذلك فقد كفر وقد قال تعالى

« لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بالله واليَوْمِ الآخر يُوادُّونَ مَنْ حادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كانوا آباءَهُمْ أوْ أبْناءَهُمْ أوْ عَشيرَتَهُمْ أولئكَ كَتَبَ في قلوبِهُم الأيمانَ وأيدَّهُمْ برُوح منه ويُدْخِلُهُمْ جنات تَجْرِي من تحتِها الأنْهار خالدينَ فيها رَضِيَ الله عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أولئِكَ حِزبُ الله الا ان حزب الله هم المُفْلِحُونَ » •

« لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون » اي يتحاببون ويتوادّون ويتصادقون « من حاد الله ورسوله » اي من عادى الله بعدم الأيمان به وبرسوله وبعدم اتباعه واذا وجدت قوماً يعملون ذلك من التحابب لاعداء الاسلام فليسوا بمؤمنين وان تظاهرهم بالأيمان كذب ودجل ونفاق • « ولو كانوا » ولو كان هؤلاء الذين يتوادّون معهم « آباءهم أو أبناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم » « أولئك » اي الذين يعادون كل من عادى الاسلام ويتركونه وينبذونه ويحاربونه بكل شدة « كتب » اي رسخ الله « في قلوبهم الأيمان » بالله واليوم الآخر « وأيدهم » اي قواهم وقوى عقيدتهم « بروح » أي بقوة « منه » اي حاصلة تلك القوة من عنده • هذا في الدنيا وفي الآخرة « يدخلهم جنات » بساتين « تجري من تحتها » اي تحت اشجارها « الأنهار » للسقي « خالدين فيها » اي مؤبدين فيها لا يخرجون وجوزوا هذا الجزاء لأنه « رضى الله عنهم » بسبب اعمالهم وهم « رضوا عنه » في الدنيا بالأيمان وما ذهب لهم من العيش ورضوا عنه في الآخرة بهذا الجزاء « أولئك »

الموصوفون بهذه الصفات « حـزب الله » اي اتباعه « ألا » اي فأعلم « ان حزب الله » اي المؤمنون به « هم المفلحون » الفائزون بنعـم الله في الآخرة والناجون من النار والداخلون في الجنة ، وهكذا كان المسـلمون الأوائل ولذلك انتصروا ولنذكر هنا امثلة لذلك ذكرها القرطبي :

١ ـ قال جريج حدث ان أبا قحافة والد أبي بكر رضي الله تعالى عنه سب النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فصكه أبو بكر صكة فسقط منها على وجهه ثم أتى النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فـذكر ذلك له فقال أو فعلت هذا لا تعد اليه . قال : والذي بعثك بالحق نبياً لو كان السيف قريبا مني لقتلته .

٢ ـ قال ابن مسعود : نزلت الآية في أبي عبيدة الجراح فانه قتل أباه عبدالله بن الجراح يوم أحد وقيل يوم بدر وكان الجراح يتصدى لأبي عبيدة وأبو عبيدة يحيد عنه فلما أكثر قصد اليه أبو عبيدة فقتله .

٣ ـ مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير يوم بدر .

٤ ـ قتل عمر بن الخطاب خاله العاص بن هشام بن المغيرة يوم بدر .

٥ ـ ان علياً وحمزة قتلا يوم بدر عتبة وشيبة وهما من عشيرتهما .

هكذا كان المسلمون فأنتصروا فليكن المسلمون اليوم هكذا لينتصروا هذا كله مع الكافر الحربي ، فالكافر الحـربي سواء كان حـربياً بالقتال أو بالنضال لا يجوز موالاته والتحابب معه والتعامل معـه واما الكافر الذمي والمعاهد فيجوز التحابب والتعامل معه في المعاملات الاعتيادية وأمور أخرى كالمعاملات .

قال تعالى « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين . انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم ان تولوهم فأولئك هم الظالمون »(١) .

---

(١) سورة الممتحنة الآية ( ٨ ، ٩ ) .

هذا واما موالاتهم في ادارة الأمور وتولية البلاد والعباد والسياسة •

فلا يجوز أيضاً لأن السياسة قتال بدون سلاح وسلاح بدون قتال • وسيأتي في سورة المنافقين قصة عبدالله بن عبدالله بن أبيّ مما يدل على شدة تمسكه بالأسلام وتركه موالاة أبيه لأنه لم يؤمن بل كان يعادي الاسلام ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم •

هذا ما استطعت ان أكتب في تفسير هذه السورة الشريفة وأرجو من الله تعالى القبول انه المولى والمنعم وخير مأمول في الدنيا والآخرة •

## سـورة الحشـر

« سميت بالحشر لما فيها من خبر حشر اليهود أي جمعهم في خيبـر » •
مدنية نزلت بعد البينة وآياتها عشرون •

بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحِيْمِ

« سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم » •

التسبيح : ألتنزيه فاذا قيل لله تعالى فالمراد به الاعتراف بنزاهته فمعنى قوله تعالى « سبح لله » أنه دل واعترف بنزاهة الله تعالى عن ان يعجز ان يفعل أي شيء اراده كل « ما في السموات والارض » فان من قدر على ان يخلق هذا الخلق العظيم لا يعجز عن كل ما يريد أن يفعل ، ودل هـذا الخلق على أنه « وهو العـزيز » اي الغالب على تنفيذ ارادته لا يمنعـه من ذلك أي قوة وسلطان في الكون « الحكيم » وهو الحكيم الذي لا يعمل شيئاً الا لحكمة بالغةٍ ومصلحة كبيرة هو يعلمها فبهذه العزة والقـدرة وللحكمة والمصلحة التي رآها أخرج طائفة من اليهود وأجلاهم من المدينة المنورة كما قال •

« هُوَ الَّذي أَخْـرَجَ الذّين كَفَرُوا من أهْلِ الْكتابِ منْ ديارهِمْ لأَولِ الْحَشْـرِ ما ظَنَنْتُمْ أنْ يخرُجوا وظنّوا أنَّهُـمْ مانِعَتُهُمْ حُصُونهمْ من الله فَأَتاهمُ اللهُ منْ حيثُ لمْ يحْتسبوا وقذَفَ في قلوبهمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بيُوتَهمْ بأيْديهِمْ وأيْـدي المؤمنينَ فاعْتبروا يا أولي الأبْصارِ » •

قصـة بني النضـير :ـ

نزلت هذه السورة في بني النضير وهم طائفة من اليهود كانت تسكن المدينة وفي رواية قصة بني النضـير عبارات متفرقة أحسنها ما ذكره الخازن رضي الله عنه فانه يقول : ان النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم لما دخـل

المدينة صالحه بنو النضير على ان لا يقاتلوه ولا يقاتلوا معه فقبل ذلك رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ، فلما غزا رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بدراً وظهر على المشركين قال بنو النضير والله انه النبي الأمي الذي نجد نعته في التوراة لا ترد له راية ، فلما غزا أحداً وانهزم المسلمون ارتابوا واظهروا العداوة لرسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وللمؤمنين ونقضوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وركب كعب ابن الأشرف في أربعين راكباً من اليهود الى مكة فأتوا قريشاً فحالفوهم وعاقدوهم على أن تكون كلمتهم واحدة على محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ودخل أبو سفيان في أربعين من قريش وكعب بن الأشرف في أربعين من اليهود المسجد الحرام وأخذ بعضهم على بعض الميثاق بين أستار الكعبة ثم رجع كعب وأصحابه الى المدينة فنزل جبريل عليه السلام فأخبر النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بما تعاقد عليه كعب وابو سفيان وأمره بقتل كعب بن الأشرف فقتله محمد بن مسلمة غيلة وكان النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قد اطلع منهم على خيانة حين أتاهم في سقيفتهم في دية الرجلين المسلمين الذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري في منصرفه من بئر معونة فهموا بطرح حجر على النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم من الحصن فعصمه الله منهم واخبره بذلك . فلما قتل كعب بن الأشرف أصبح رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وأمر الناس بالمسير الى بني النضير وكانوا بقرية يقال لها زهرة فلما سار اليهم النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وجدهم ينوحون على كعب بن الأشرف فقالوا يا محمد : واعية على أثر واعية وباكية على أثر باكية قال : نعم فقالوا : ذرنا نبك شجوننا ثم أئتمر أمرك فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم أخرجوا من المدينة فقالوا : الموت أقرب الينا من ذلك ثم تنادوا بالحرب واذنوا بالقتال ودس المنافقون عبدالله بن ابي واصحابه اليهم ان لا تخرجوا من الحصن فان قاتلوكم فنحن معكم ولا نخذلكم ولننصرنكم ولئن أخرجتم لنخرجن معكم فدربوا على الأزقة وحصنوها ثم انهم أجمعوا على الغدر برسول الله صلى الله تعالى عليه وآله

وسلم فأرسلوا اليه ان أخرج الينا في ثلاثين رجلا من اصحابك وليخرج منـا ثلاثون حتى نلتقي بمكان نصف بيننا وبينك فيسمعوا منك فان صـدقوك وآمنوا بك آمنا كلنا فخرج النبي صلى الله تعالى عليه واله وسلم في ثلاثين من اصحابه وخرج اليه اليهود ثلاثـون حبراً من اليهود حتى كانوا في براز من الأرض فقال بعض اليهود لبعض كيف تخلصون اليه ومعه ثلاثون رجلا من اصحابه كلهم يحب الموت قبله ولكن أرسلوا اليه كيف نفهـم ونحن ستون أخرج في ثلاثة من أصحابك ونخرج اليك ثلاثة من علمائنا فيسمعون فيك فان آمنوا بك أمنا بك وصدقناك فخرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وآلـه وسلم في ثلاثة من اصحابه وخرج ثلاثة من اليهود معهـم الخناجر وأرادوا الفتك برسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فأرسلت امرأة ناصحة من بني النضير الى أخيها وهو رجل مسلم من الأنصار فاخبرته بما أراد بنـو النضير من الغدر برسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فأقبل أخوهـا سريعاً حتى ادرك النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فساره بخبرهم قبل أن يصل اليهم فرجع النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فلما كان من الغد صبحهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بالكتائب فحاصرهم احدى وعشرين ليلة فقذف الله في قلوبهم الرعب وأيسوا من نصـر المنافقين فسألوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم الصلح فأبى عليهم الا أن يخرجوا من المدينة على ما يأمرهم به فقبلوا ذلك فصالحهم على الجلاء وعلى ان لهم ما أقلت الأبل من أموالهم الا الحلقة وهي السلاح وعلى ان يخلوا لهم ديارهم وعقارهم وسائر اموالهم ، وقال ابن عباس على ان تحمل كل اهل بيت على بعير ما شـاءوا من متاعهم وللنبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ما بقي ، وقيل أعطى كل ثلاثة نفر بعيرا وسقاء ، وهذا القول أصح لانه أليق بانسانية الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وشفقته ففعلوا ذلك وخرجوا من ديارهم الى اذرعات واريحاء من أرض الشام الا أهل بيتين منهم آل أبي الحقيق وآل حيّي بن أخطب فانهم لحقوا بخيبر ولحقت طائفة بالحيرة فذلك قوله تعالى « هو الذي أخرج الذين كفروا ... الخ » .

« هو » اي الله « الذي أخرج الذين كفروا » أي قدّر وأيد محمداً ونصره فأخرج الذين كفروا وهم بنو النضير « من ديارهم » بالمدينة المنورة الى الشام وغيرها من البلاد « لأول الحشر » اللام للتوقيت أي وقت أول الحشر وهو حشرهم هذا الى خيبر والحشر الثاني هو حشر عمر اياهم واجلاءهم من جزيرة العرب الى الشام « ما ظننتم » أيها المؤمنون أن يخرجوا ويرتحلوا من ديارهم نقوتهم وصيانة حصونهم « وظنوا » اي بنو النضير « انهم مانعتهم حصونهم » اي تمنعهم قلاعهم « من الله » اي من جنود الله وهم المؤمنون او من عذاب الله والمآل واحد « فأتاهم الله » اي أتاهم جنوده او عذابه « من حيث لم يحتسبوا » اي لم يظنوا ان رئيسهم كعب بن الأشرف يقتل بيد أخيه في الرضاعة ولم يظنوا ان الرسول يأتيهم لقتالهم فكان لا يخطر ذلك ببالهم « وقذف » أي قذف الله « في قلوبهم الرعب » بقتل رئيسهم فأصبحوا « يخربون بيوتهم بأيديهم » لئلا ينتفع بها المسلمون بعدهم حيث آيسوا من بقائهم فيها « وأيدي المؤمنين » وكان المؤمنون أيضاً يخربون البيوت لكي لا يبقى مكان للعدو يستر فيه او يتحصن به «فاعتبروا» اي فاتعظوا وخافوا أن ينزل بكم مثل ما نزل بهم فلا ترتكبوا ما ارتكب هؤلاء من الخيانة والغدر ونقض العهد ومخالفة الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « يا أولي الأبصار » يا أصحاب العقول والألباب .

«وَلَوْلا أَنْ كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْجلاءَ لعذَّبهُمْ في الدُّنْيا ولهُمْ في الْآخِرةِ عَذابُ النَّارِ » .

« ولولا ان كتب الله » اي ولولا ان قدر الله « عليهم الجلاء » الأخراج من الوطن « لعذبهم » بالقتل والسبي وغير ذلك « في الدنيا ولهم » بعد الجلاء « في الأخرة » يوم القيامة « عذاب النار » . ثم اراد الله تعالى ان يذكر سبب اجلاءهم واخراجهم من الوطن في الدنيا وعذابهم في الآخرة بالنار فقال :

« ذلِكَ بأَنَّهُمْ شاقّوا اللهَ وَرَسولَهُ ومَنْ يُشاقِّ اللهَ فانَّ اللهَ شديدُ الْعِقابِ » .

« ذلك » ذلك الأخراج في الدنيا وعذابهم بالنار يوم القيامة حصل « بأنهم » اي بسبب انهم « شاقوا الله » وحيث أن مشاقة الله غير معلوم فسره

تعالى فقال « ورسوله » أي وشاقوا رسوله فمشاقة الرسول هي مشاقة الله تعالى « ومن يشاق الله » بمعاداة رسوله وصد الناس عن تطبيق شريعته « فان الله شديد العقاب » اي ان الله شديد عقابه له ولكل من يتصف بهذه الصفة وهي معاداة رسول الله والوقوف دون العمل بكتاب الله وتطبيق شريعته ورفع راية الاسلام وهذا الحكم سار الى يوم القيامة لكل من أصبح حجر عثرة دون تطبيق الأسلام والحكم به وما أكثر هؤلاء ثم ان جيش الاسلام حينما حاصر قلاع بني النضير قطعوا النخيل وأحرقوه لسعة المعسكر أو لغرض آخر من اغراض الحرب ويقال انهم قطعوا نخلة واحدة وأحرقوا نخلة وقيل ست نخلات فنادى بنو النضير : يا محمد أتزعم أنك نبي تريد الأصلاح أفمن الصلاح قطع النخيل وحرق الأشجار فشق ذلك على النبي واختلف المؤمنون وقال بعضهم لا تقطعوا وقال بعضهم اقطعوا فنزلت الآية بقوله تعالى :

« ما قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوها قائِمةً على أصُولِها فبإذْنِ الله ولِيُجْزِيَ الفاسِقينَ » ٠

« ما قطعتم من لينة » وهي النخلة كلها وقيل هي النخلة الكريمة « أو تركتموها قائمة على أصولها » فلم تقطعوها « فبأذن الله » اي كان ذلك مأذونا فيه من عند الله تعالى « و » اذن في ذلك « ليخزي الفاسقين » الكافرين ويهينهم ٠

قال القرطبي بعد تفسير هذه الآية الكريمة :

واختلف في تخريب دار العدو وقطع ثمارها أو احراقها على قولين :

الأول : ان ذلك جائز مطلقاً ٠

الثاني : ان علم المسلمون ان ذلك يكون لهم لا يجوز وان يئسوا فعلوا٠

والصحيح الأول لأن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم علم ان نخل بني النضير لهم ولكنه قطع وحرق ليكون ذلك نكاية بهم واتلاف بعض المال لاصلاح باقيه جائز ومصلحة مقصودة شرعا وعقلا ٠ أقول والآية صريحة

في ربط ذلك بالمصلحة بأن كان في ذلك كسر لشوكتهم أو وهن لهم جاز كما قال تعالى : « وليخزي الفاسقين » والا فلا يجوز بدون مصلحة •

تمهيـد :

ان الأموال التي تقع في حوزة الدولة الاسلامية ثلاثة أنواع :ـ

الاول : الصدقات : وهي أموال الزكاة التي تجبى وتحصل من المسلمين وقد بين الله تعالى كيفيه صـرفها وتوزيعها في الآية ( ٦٠ ) من سورة التوبة فقال « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم » •

الثاني : الغنيمة : وهي الأموال التي تقع بأيدي المسلمين من الكافرين نتيجة القتال والغلبة عليهم وقد بين تقسيم ذلك ايضاً في الآية ( ٤١ ) من سورة الانفال فقال تعالى « واعلموا انمـا غنمتـم من شيىء فان لله خمسـه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ان كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيىء قدير » والباقي أربعة أخماس تقسـم على المشتركين في الجهاد للفارس سهمان وللراجل سهم واحد •

الثالث : الفيىء : وهو المال الذي يأخذه المسلمون من الكفار بدون قتال بل نتيجة الصلح والاتفاق بينهم كأموال بني النضير حيث صالح بنو النضير رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم على أن يكون المال لرسول الله وهم يخرجون سالمين ولا يقتلون ويدخل في ذلك الجزية وما يؤخذ مـن العشر من اراضي الكافرين ويسمى ذلك بالخراج ولما أجلى بنو النضير وبقى أموالهم للمسلمين ظـن بعض المسلمين ان هذه الاموال كالغنيمـة فطلبـوا تقسيمها كالغنيمة فأنزل الله تعالى الآية وأخبرهم فيها بأن هذه ليست غنيمة بل هو فيىء وبين حكم الفيىء فقال :

« وَما أفاءَ الله على رَسُولهِ منْهُمْ فَما أوْجَفْتُمْ عَلَيْه مِنْ خَيلٍ ولا رِكاب وَلَكِنَّ الله يُسَلِّطُ رُسُلَهُ على منْ يشاءُ والله على كل شيءٍ قَدير » •

« وما افاء الله » وما رجع الله « على رسوله منهم » من بني النضير من الأموال ليست غنيمة لأنها حصلت دون قتال حيث « فما أوجفتم » فما حركتم على أخذها « من خيل ولا ركاب » كالبعير والخيل وغير ذلك من الدواب ، اي ما قاتلتم على ذلك الأموال وما حصلتموها نتيجة القتال « ولكن الله يسلط رسله على من يشاء » فيستسلم دون حرب « والله على كل شيء قدير »

ثم بعد ان بين الله تعالى أن هذا فييء وليست غنيمة بين كيفية تقسيم الفييء فقال :

« ما أفاءَ الله عَلى رَسوله مِنْ أهْل الْقُرى فَلِلّهِ وللرسول ولذي الْقُربى وَالْيَتامى وَالمَساكين وابنِ السّبيلِ كَيْ لا يكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأغنياءِ مِنْكُمْ وَما آتاكُمُ الرَّسولُ فخذوهُ وَمَا نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهوا واتقوا الله انَّ الله شديدُ العِقابِ » .

« ما افاء الله » ما رجع على رسوله « من أهل القرى » سواء كان قرى بني النضير وغيرهم بدون قتال « فللله » يكون قسم منه للصرف على المصالح العامة وللرسول «وللرسول» قسم لينفق على نفسه وأهل بيته « ولذي القربى » وقسم لأقارب الرسول الذين حرموا من أخذ الصدقات « ولليتامى » قسم منه « والمساكين » وقسم يعطى للفقراء عامة « وابن السبيل » لهم قسم . وقد قسمنا كذلك « كي » لأجل أن « لا يكون » ذلك المال « دولة بين الاغنياء منكم » يتداولونها في التجارات والمعاملات ويكون الفقراء وغيرهم من هؤلاء الأصناف محرومين منه « وما آتاكم » وما اعطاكم « الرسول فخذوه » فاقبلوه « وما نهاكم » الرسول « عنه فانتهوا » لا تقربوه « واتقوا الله » واتقوا عذاب الله عند مخالفتكم للرسول « ان الله شديد العقاب » لمن خالف رسوله ولمن لم يقبل العمل بشريعته وحكمه .

فائدة : هذه الجملة وما آتاكم الرسول ... الخ الآية . قال القرطبي والخازن وغيرهم من المفسرين : هذا نازل في أموال الفييء ولكن هو عام في

كل ما أمر به النبي صلى الله تعالى عليه وآلــه وسلم أو نهى عنه من قول أو عمل من واجب أو مندوب أو مستحب أو نهى عنه من محرم فيدخل فيه الفيء وغيره ، روى البخاري ومسلم عن عبدالله بن مسعود رضي الله تعالى عنه انه قال « لعن الله الواشمات » اللائي يعملن الوشم والوشــم : هو غرز العضو من الأنسان بالأبرة ثم الحشو بالكحل « والمستوشمات » اللائي يقبلن ذلك « والمتنمصات » اللائي ينتفن الشعر من الوجه « والمتفلجات » اللائي يتكلفن تفريج ما بين ثنايا أسنانهن ؛ فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها ام يعقوب وكانت تقرأ القرآن فأتت ابن مسعود فقالت :ـ ما حديث بلغني عنك انــك قلت كذا وكذا وذكرته فقال عبدالله : وما لي لا العن من لعنه رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وهو في كتاب الله تعالى ، فقالت المرأة : لقد قرأت القرآن ( لوحي المصحف ) فما وجدته • فقال : ان كنت قرأته لقد وجدته قال الله عز وجل : « وما آتاكم الرسول فخـذوه وما نهاكـم عنـه فانتهوا » • وروى البخـــاري ومســـلم أيضـــا عن الســـيدة عائشـــة رضي الله تعـــــالى عنهـا قالـت : قـال رســـول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « من احدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » وفي رواية « من عمل عملا ليس عليه امرنا فهو رد » انتهى •

ثم بعد ان ذكر الله تعالى الفقراء عامة نص على بعض الفقراء للدلالة على أنهم احق من غيرهم بهذا المال فقال :

« لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً من الله وَرِضْوَاناً وَيَنصرون الله ورسولهُ وأُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ » •

« للفقراء المهاجرين » يعطى من هذا المال للفقراء المهاجرين من مكـة المكرمة الى المدينة المنورة من اصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله

وسلم « الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم » وذكرت هذه الجملة للدليل على أنهم أحق من غيرهم لانهم لا مال ولا دار لهم • ثم علل قوله تعالى خروجهم من بلدتهم بقوله « يبتغون » يطلبون بهذه الهجرة « فضلا من الله ورضواناً » لأن الهجرة كانت بأمر الله تعالى وواجبة وسبباً لثواب الله ورضوانه « وينصرون الله » ينصرون دين الله « ورسوله » بهذه الهجرة « واولئك هم الصادقون » ضمير « هم » للفصل أي الفرق بين الخبر والصفة لا للحصر لأن الصدق لم يكن محصوراً عليهم بل الأنصار كانوا صادقين مثلهم إي صادقون في أيمانهم فان الايمان الصادق هو ما يتحمل صاحبه في سبيله المشقة ويضحي بماله ونفسه لأجله قال تعالى « انما المؤمنون الذين قالوا آمنا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون » •

ثم بين تعالى قسماً آخر من الفقراء الأهم فقال :

« والذين تَبَوَّؤُا الدَّارَ وَالْأيمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ولا يجدونَ في صدورِهِمْ حاجةً مما أوتوا وَيُؤْثِرونَ على أنفسِهِمْ ولو كانَ بهمْ خَصاصَةٌ وَمَنْ يوقَ شُحَّ نفْسِهِ فأُولئك همُ المُفلِحونَ » •

« والذين » والفقراء الذين « تبوؤا الدار » نزلوا المدينة « والأيمان » مع الأيمان « من قبلهم » من قبل هجرتهم اليهم « يحبون من هاجر اليهم » مدح الله تعالى الأنصار بحبهم للمهاجرين ، فتفيد ان من يبغضهم فهو مذموم عند الله تعالى وكفى بذلك خسة لهم « ولا يجدون في صدورهم حاجة » أي لا يحسدون المهاجرين « مما أوتوا » ما اعطوا من أموال بني النضير «ويؤثرون» ويختارون العطاء لغيرهم « على انفسهم ولو كان بهم خصاصة » فقر « ومن يوق » ومن وقاه الله « شح نفسه » وهو البخل « فاولئك هم المفلحون » لفظ « هم » هنا مثله في « هم الصادقون » وقد مر مافيه • فقسم رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أموال بني النضير كما أمره تعالى واعطى

فقراء المهاجرين وأمرهم أن يردوا مالديهم من أملاك الأنصار واعطى فقراء الأنصار أيضاً ولم يكن فيهم الا ثلاثة أشخاص وذكر قسماً آخر من الفقراء يستحقون مال الفيء أي واردات الأراضي التي أخذت فيئاً وهم فقراء المسلمين الذين يأتون بعد زمان الرسالة الى يوم القيامة فقال جل وعلا :

« وَالذَّينَ جاءوُا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقولوُنَ ربنَّا اغْفِر لَنا ولأخْوانِنا الذيّن سَبقونا بالأيمان وَلا تَجْعَلْ في قلوُبنا غِلاً للذيّن آمَنوا رَبّنا انّكَ رَؤوُفٌ رَحيمٌ » .

« والذين جاءوا من بعدهم » والفقراء الذين جاءوا من بعد المهاجرين والأنصار ومن أوصافهم انهم « يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالأيمان » ومرادهم المؤمنون السابقون « ولا تجعل في قلوبنا غلاً » اي حقداً وكراهية « للذين آمنوا » من السابقين واللاحقين « ربنا انك رؤوف رحيم » بعبادك فتقبل دعائنا هذا .

قال العلماء :

تفيد الآية بأن من كان في قلبه شيء من كراهية المؤمنين السابقين والصحابه والتابعين فليس له حق في أموال الدولة الأسلامية ولا يجوز ان يعطى لهم منها شيء .

تنبيه :

وهذا التقسيم للفيء كان في زمن الرسول صلى الله تعالى وعليه وآله وسلم وأما بعده فكله لبيت المال يصرف للمحتاجين عامة وللمصالح العامة والأمور الخيرية .

ثم أراد الله تعالى أن يذكر موقف المنافقين في حادثة بني النضير فقال :

« الَمْ ترَ الى الذيّنَ نافَقوُا يقوُلوُنَ لأِخْوانِهِمْ الذيّن كَفَروُا مِنْ أهْلِ الكِتابِ لئِنْ أُخْرِجْتُمْ لنخرُجنَّ معكُمْ ولا نُطيعُ فيكُمْ أحَداً أَبَداً وانْ قوتِلْتُمْ لَننْصُرنّكُمْ واللهُ يشْهدُ انّهُم لَكاذِبونْ » .

« الم تر الى الذين نافقوا » ألم تنظر الى الذين نافقوا ماذا فعلوا انهم كانوا « يقولون لاخوانهم » أصدقائهم « الذين كفروا من اهل الكتاب » وهم بنو النضير أرسل اليهم عبدالله بن أبي وجماعته ان اثبتوا ولا تخافوا فوالله « لئن أخرجتم » لئن اخرجكم المسلمون وأجلوكم عن دياركم « لنخرجن معكم » وتترك ديارنا « ولا نطيع فيكم » لا نطيع في اخراجكم وقتالكم « أحدا أبدا وان قوتلتم » وان قاتلكم المسلمون « لننصرنكم» نقوم بصفكم ونقاتل معكم « والله يشهد » اي يعلم « انهم » المنافقين « لكاذبون » في هذه المواعيد التي وعدوها بني النضير ثم بين تعالى : كذبهم فقال جل وعلا :

« لَئِنْ أُخْرِجوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُم وَلَئِنْ قوتِلوا لا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبار ثمَّ لا يُنْصَرون » .

« لئن أخرجوا » اي لئن أخرج المسلمون بني النضير من وطنهم وديارهم « لا يخرجون معهم » هؤلاء المنافقون « ولئن قوتلوا » قاتل المسلمون بني النضير « لا ينصرونهم » اي لا ينصر المنافقون بني النضير « ولئن نصروهم » بأن شاركوا معهم القتال « ليولن الأدبار » هاربين « ثم لا ينصرون » لا ينصر بنو النضير من قبل أحد غيرهم وهم قد فروا فلم يبق لهم ناصر غير الله والله قد خذلهم لكفرهم .

ثم علل تعالى على انهم ان شاركوهم في القتال لولوا هاربين فقال :

« لأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً في صُدُورِهِمْ مِنَ الله ذلِكَ بأنَّهُمْ قَومٌ لا يَفْقَهُونَ » .

« لأنتم » والله لأنتم ايها المسلمون « أشد رهبة » أي أكثر خوفا وخشية « في صدورهم » في قلوبهم « من الله » تعالى والمعنى يخافون هؤلاء المنافقون منكم أكثر مما يخافون من الله تعالى « ذلك » خوفهم منكم أكثر من خوفهم من الله « بأنهم » بسبب أنهم « قوم لا يفقهون » لا يعرفون قدرة الله تعالى وعظمته .

ثم أخبر الله تعالى عن اخبار وأحوال اليهود والمنافقين لكي لا يخاف المؤمنون منهم فقال تعالى :

«لا يُقاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إلاّ في قُرىً محصَنَةٍ أو مِنْ وراء جُدُرٍ . بأسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهمْ جميعاً وقلوبُهمْ شَتّى ذَلِكَ بأنّهُمْ قَوْمٌ لا يعقِلونْ » .

« لا يقاتلونكم » اي لا يقاتلكم اليهود والمنافقون « جميعاً » أي مجتمعين لخوف بعضهم من بعض « الا في قرى محصنة » الا اذا كان لكل فريق منهم قرى محصنة بالسور والأسيجة « أو من وراء جدر » وحيطان لأنهم لا يأمن بعضهم بعضاً « تحسبهم جميعاً » اي تحسبهم مجتمعين على رأي واحد وعمل واحد وعقيدة واحدة ولكن ليسوا كذلك بل « وقلوبهم شتى » متفرقة كل يريد اضعاف الآخر « ذلك » أي هذه التفرقة « بأنهم » بسبب انهم « قوم لا يعقلون » تدبير الأمور فان قيام الأمور واستقامتها بالوحدة واتفاق الكلمة ووحدة العقيدة والأيمان ولا يمكن أبداً الجمع بين مختلفي العقائد في العمل والبناء وان فعلت ذلك فليس بناجح .

« فائدة »

قال فيما قبل بأنهم قوم لا يفقهون وقال هنا بأنهم قوم لا يعقلون لأن الأول كان في الأمور المعنوية والدينية وهنا كان في الأمور الدنيوية والفقه يستعمل للأول وللثاني العقل .

« تنبيه »

في هذه الآيات معجزات لأن القرآن أخبر عن المراسلة التي وقعت بين المنافقين وبني النضير وكان كذلك وأخبر عن المنافقين بأنهم لا يخرجون مع بني النضير وقد وقع كذلك وأخبر عن خوفهم الشديد من المسلمين وكان كما أخبر . وأخبر عن تفرق كلمتهم وقلوبهم مع اظهارهم الوحدة والأتفاق وكان كذلك . والأخبار هذه كلها كانت عن المغيبات والخبر عن الغيب كما هو معجزة فدل ذلك على ان القرآن من الله تعالى .

« كَمَثَلِ الذِّينَ مِنْ قبلِهِمْ قَرِيباً ذاقُوا وَبالَ أمْرِهِمْ ولهُمْ عَذابٌ أليمٌ » .

« كمثل » أي مثل بني النضير في الهزيمة والذل والهوان في الدنيا

« كمثل الذين من قبلهم » وهم أصحاب بدر وبنو قينقاع « قريباً » منهم في الزمان « ذاقوا وبال » عذاب « أمرهم » في الدنيا . « ولهم عذاب اليم » في الآخرة ثم بعد أن ذكر تعالى مثل بني النضير في الذل والهوان اراد تعالى ان يمثل لاغراء المنافقين لهم بوعودهم الكاذبة فقال تعالى :

« كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ اذْ قالَ لِلانْسانِ اكفُرْ فلمّا كفرَ قالَ إنّي بريءٌ منْكَ إنّي أخافُ الله ربَّ الْعالمين » .

« كمثل » اي مثل بني النضير مع المنافقين في اغواءهم لهم « كمثل الشيطان إذ قال للانسان اكفر » فيغريه ويغويه « فلما كفر » الأنسان وسيق الى العذاب واستنجد بالشيطان « قال » الشيطان للانسان « اني بريء منك » حيث اني اخاف الله رب العالمين فلا أستطيع من نجدتك شيئاً .

« فكان عاقِبَتَهُما أنَّهُما في النّارِ خالِديْنَ فيها وَذلِكَ جَزاءُ الظالِمينَ » .

« فكان عاقبتهما » اي عاقبة الشيطان ومن كفر وعاقبة المنافقين وبني النضير « انهما في النار خالدين فيها » لا يخرجون « وذلك » الجزاء من دخول النار والخلود فيها « جزاء الظالمين » اي جزاء كل ظالم سواء كان تابعاً أو متبوعاً ثم بعد ان ذكر تعالى حال بني النضير والمنافقين وعذابهم في الدنيا والآخرة توجه الى المؤمنين بالموعظة والارشاد لان الشيطان لا يزال يعمل لافساد كل انسان سيما المؤمنين فقال تعالى :

« يا أيُهَا الذّينَ آمَنوا اتّقوا الله وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قدَمَتْ لِغَدٍ واتّقوا الله إنّ الله خَبيرٌ بِما تَعْملونَ » .

« يا أيها الذين آمنوا » بالله تعالى واليوم الآخر وصدقوا الرسول واعتنقوا الاسلام « اتقوا الله » اي اتقوا عذاب الله تعالى وذلك بترك المعاصي « ولتنظر نفس » اي ولتنظر كل نفس وتحاسب نفسها « ما قدمت » اي ماذا قدمته من الأعمال الصالحة « لغد » وهو يوم القيامة سمي غداً لأن الكون يومان يوم هو الدنيا ويوم هو الآخرة فهو غد بالنسبة ليوم الدنيا « واتقوا الله » اعاد هذه الجملة لأن الأولى كانت أمراً بترك المعاصي وهذه أمر

بالتقوى والاجتناب عن ترك الأوامر والعمل الصالح « ان الله خبير بما نعملون » فيحاسبكم عليه ويجزيكم على وفاقه ان خيراً فخير وان شراً فشر •

« ولا تَكُونُوا كالَّذينَ نَسُوا الله فَأَنْساهُمْ أَنْفُسَهُمْ أولَئكَ هُمُ الفاسقونَ » •

« ولا تكونوا كالذين نسوا الله » اي نسوا دينه فلم يعملوا به ومعنى النسيان هنا الترك لا الذهول عن الشيىء فان الثاني لا يسئل العبد عليه كما قال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « رفع عن امتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » • والأول هو الذي يعاقب المرأ عليه قال تعالى ( ولقد عهدنا الى آدم فنسي ولم نجد له غرماً ) اي نرك العمل بالعهد « فأنساهم » لشدة العذاب « أنفسهم » لا يدرون بحالهم « أولئك » الذين يتركون العمل بدين الله تعالى « هم الفاسقون » اي الخارجون عن الأطاعة ولذلك استحقوا العذاب •

« لا يَسْتَوي أصْحابُ النّارِ وَأصْحابُ الجنَّةِ أصْحابُ الجنّةِ هُمُ الفائِزونَ » •

« لا يستوي اصحاب النار » اي لا تخرجوا عن أمر الله تعالى فتكونوا من اصحاب النار بل اعملوا لتكونوا اصحاب الجنة لانه « لا يستوي اصحاب النار واصحاب الجنة » في الراحة والتنعم حيث ان « اصحاب الجنة هم الفائزون » بالنعم والحياة السعيدة دون اصحاب النار فانهم يعذبون فيها •

ثم أشار الله تعالى بعد هذه القصص والمواعظ والعبر الى شدة قسوة قلب الناس فقال تعالى :

« لَوْ أَنْزَلْنا هذا القُرآنَ عَلَى جَبَلٍ لرَأيتهُ خاشِعاً مُتصدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ الله وَتِلْكَ الأمْثالُ نَضرِبُها لِلنّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتفكّرونْ » •

« لو انزلنا هذا القرآن » الذي انزل عليكم ايها الناس لو أنزلناه « على جبل لرأيته » اي لرأيت الجبل « خاشعاً » متذللاً لأمر الله مطيعاً له

« متصدعاً » متشققاً « من خشية الله » اي من خوفه فلم يعصه « وتلك الأمثال » التي وردت في القرآن من القصص وغيرها « نضربها » نذكرها « للناس لعلهم يتفكرون » اي ليتفكروا ولا يتفكرون فهم اذاً أقسى من الجبل والحجارة .

ثم أراد تعالى ان يذكر نبذة من صفاته مما يدعوا الى الخشية منه والى طاعة أوامره والأجتناب عما نهى عنه فقال تعالى .

« هُوَ اللهُ الذّي لا اِله اِلاّ هُوَ عالمُ الغَيْبِ والشّهادةِ هُوَ الرّحْمّنُ الرّحيمُ » .

« هو » اي الحاضر في كل ضمير « الله » اي الذات المستجمع لجميع صفات الكمال والمنزه عن جميع صفات النقص « الذي لا اله » لاموجد ولا مشرع ولا مستحق للطاعة والخضوع له « اِلا هو » الكائن بذاته والمعلوم بآثاره وصفاته « عالم الغيب » عالم بكل ما غاب عن الخلائق كلهم « والشهادة » اي العالم بكل ما يشاهده الخلق « الرحمن » معناه المفيض على عباده مالا يعد ولا يحصى من النعم الظاهرة والباطنة قال تعالى « وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها » . « الرحيم » معناه المتصف بصفة الأنعام والاحسان اتصافاً لازما وثابتاً فمن هذه الصفة تنبعث هذه الانعامات اللامتناهية التي هي مفاد الرحمن جل جلاله هذا .

وفي ذكر الرحمن الرحيم بعد قوله : عالم الغيب والشهادة فائدة عظيمة فانه حينما قال « عالم الغيب والشهادة » تقشعر جلود وقلوب المؤمنين وتكاد ان تتقطع خوفاً من الله تعالى حيث علم انه عالم بالسر والعلانية وكل ما خفي وما ظهر ولا يخلو انسان عن خطأ في السر أو العلانية فلتهدئة قلوب الخائفين قال الرحمن بمن تاب ورجع ، الرحيم بمن خشي الله وندم على ما جنى وارتكب .

« هُوَ اللهُ الذّي لا اِله الاّ هُوَ المَلِكُ القدُّوسُ السّلامُ المُؤْمِنُ المُهَيْمِنُ العزيزُ الجَبّارُ المُتَكَبِّرُ سُبحانَ الله عمّا يُشْرِكُونْ » .

« هو الله الذي لا اله الا هو الملك » اي المسيطر على كل شيء والمتسلط على كل سلطان فلا يخرج عن حكمه وقضائه أحد وهو الملك حقيقة وغيره ملوك مجازا هو اعطاهم الملك امتحاناً هل يعملون بما أمر أو لا ثم يزيل ملكهم بالموت أو غيره ويحاسبهم على كل ما جرى منهم وكان . « قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شيء قدير » .

« القدوس » معناه المنزه عن كل نقص وعن ما يعد للعبد كمالاً من الصفات لأن كمال صفاته فوق كل كمال ولا يتصور كمال كمالها فعلمه ليس كمثل علم العبد وهلم جرا . فليس كمثله شيء . « السلام » معناه المنزه عن كل ما يوجب النقص والفناء أو معناه الواهب السلامة لمن يشاء من عباده أو يراد المعنيان حيث لا تنافي بينهما بل هو متصف بهما معاً .

« المؤمن » معناه الواهب الأمن والأمان لكل مأمون ومحفوظ وذلك بأمره كن أو بتيسير أسباب الأمان له وسد سبيل الخوف عنه .

« المهيمن » معناه القائم بقضاء حاجات العباد والباسط جناح الرأفة والصيانة عليهم . « العزيز » معناه الغالب على كل أمر والمنفذ لارادته ولا يمنعه من ذلك شيء ولا أحد سواه فلا مانع لما اعطى ولا معطي لما منع ولا راد لما قضى .

« الجبار » معناه المنفذ ارادته في خلقه رضوا أم أبوا ولا يستطيعون التفلت من قبضته أبداً . « المتكبر » معناه المتصف بالكبرياء والتفوق على غيره بحيث ان كل شيء ذليل تحت قدرته وارادته وتصرفه ( سبحان الله ) أي تنزه الله تعالى « عما يشركون » به فلا شريك له لا في ذاته ولا في أوصافه ولا في افعاله ولا في احكامه .

« هُوَ اللهُ الخالِقُ البارِىءُ المُصَوِّرُ لَهُ الأَسْماءُ الحُسْنى يُسَبِّحُ لَهُ ما في السَّمواتِ والأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكيمُ » .

« هو الله الخالق » الخالق والبارىء والمصور كلها بمعنى واحد وهو الموجد الا ان البارىء هو الموجد للشيء دون أن يكون له مثال سابق . والمصور معناه المخصص كل شيء عند ايجاده بصورة كما اراد . والخالق

معناه الموجد والمقدر للاشياء ( وهو العزيز ) اي الغالب على أمره وتنفيذ ارادته اذا اراد ان يعمل شيئاً لا يمنع واذا لم يرد لا يجبر عليه « الحكيم » ذو الحكمة فلا يعمل عملاً الا وفيه حكمة بالغة ومصلحة كبيرة . اللهم بعزتك انقذنا مما نحن فيه واصلح حالنا وبالنا وارزقنا صالح الأعمال واختم بالأحسان والأيمان آمالنا واعمالنا وآجالنا آمين والحمد لله رب العالمين وصلى الله على المولى محمد وعلى آله واصحابه أجمعين الى يوم الدين آمين

# « ســورة الممتحنــة »

سميت بالممتحنة لما فيها الامر بامتحان المهاجرات
« مدنية ، نزلت بعد الأحزاب وآياتها ثلاث عشرة »

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

« يا أَيُّها الَّذينَ آمَنوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوّي وعَدوَّكُمْ أَوْلياءَ تلْقونَ إليْهِمْ بالمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفروا بِما جاءَكُمْ مِنَ الحَقِّ يُخْرِجونَ الرَّسولَ وإيّاكُمْ أنْ تؤْمِنوا باللهِ ربِّكُمْ إنْ كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهاداً في سبيلي وابْتغاءَ مَرْضاتي تُسِرُّونَ إليْهِمْ بالمَوَدَّةِ وَأَنا أعْلَمُ بِما أخْفَيْتُمْ وما أعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقدْ ضلَّ سواءَ السَّبيلَ » •

قال القرطبي : روى الأئمة ــ اي أئمة الحديث ــ واللفظ لمسلم : عن علي رضي الله عنه قال : بعثنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم انا والزبير والمقداد فقال صلى الله تعالى عليه وآلـه وسلم : ائتوا روضة خاخ وهي موضع بين مكة والمدينة فان بها ظعينة ( وهي المرأة المسافرة في الهودج ) معها كتاب فخذوه منها فانطلقنا تعادي بنا خيلنا فاذا نحـن بالمرأة فقلنـا : أخرجي الكتاب ، فقالت . ما معي كتاب ، فقلنا : لتخرجن الكتاب أو لتلقين الثياب ، فاخرجته من عقاصها فأتينا به رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فاذا فيه ، من حاطب بن ابي بلتعة الى ناس من المشركين من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم • فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : يا حاطب ما هذا ، قال : لا تعجل عليَّ يا رسول الله اني كنت أمرأ ملصقاً في قريش وكان ممن معك من المهاجرين لهم

قرابات يحمون بها أهليهم فأحببت اذ فاتني ذلك من النسب فيهم ان اتخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتي ولم أفعله كفراً ولا ارتداداً عن ديني ولا رضاً بالكفر بعد الاسلام فقال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : صدق ، فقال عمر: دعني يا رسول الله اضرب عنق هذا المنافق . فقال : انه شهد بدراً وما يدريك لعل الله اطلع على اهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم . فأنزل الله عز وجل « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم ... الخ » وقيل اسم المرأة سارة من موالي قريش ، وكان في الكتاب اما بعد : فان رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قد توجه اليكم بجيش كالليل ، يسير كالسيل ، واقسم بالله لو لم يسر اليكم الا وحده لأظفره الله بكم ، وانجز موعده فيكم ، فان الله وليه وناصره . وذكر ان حاطباً لما سمع قوله تعالى يخاطبه يا أيها الذين آمنوا غشي عليه من الفرح بهذا الخطاب حيث كان يخشى الكفر بهذا العمل .

« يا أيها الذين آمنوا » هذا خطاب لجميع المؤمنين خاطبهم الله تعالى فقال : « لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء » قرن الله تعالى بين عدوه وهم الذين لا يؤمنون به أو يشركون به وبين عدو المؤمنين اشارة الى ان كل من كان عدواً لله فهو عدو المؤمنين والموحدين وكل من كان للمؤمنين عدواً فهو عدو لله تعالى وهذا أمر طبيعي وكذلك اشارة الى ان من كان عدواً لله يجب أن يعاديه المؤمنون ولا يوالونه وقد صرح تعالى بذلك فقال « لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء» أي اصدقاء ،وفسر الصداقة بقوله «تلقون اليهم بالمودة» ترسلون اليهم بما يدل على المحبة والولاء لهم ( وقد كفروا ) اي كفر هؤلاء الأعداء لله « بما جاء من الحق » وهو دين الأسلام والقرآن وانهم قد بلغوا من الكفر والعداوة لكم الى أنهم « يخرجون الرسول وأياكم » المعنى اخرجوا الرسول وأياكم من بلدتكم ووطنكم وعبر عنه بالمضارع اشارة الى أنهم لا يزالون يريدون ويحاولون اخراجكم من كل مكان ولو استطاعوا ليخرجونكم من الدنيا كلها لشدة عداوتهم لكم وهذه العداوة ليست الا لسبب « أن تؤمنوا » اي لسبب ايمانكم « بالله ربكم » بأنه الله لا اله الا هو وحده وقال

« بالله ربكم » اشارة الى حقية الايمان به لان من ربى الانسان من حين كونه نطفة ويربيه الى ان يعود الى لقاءه حقيق بأن يؤمن الأنسان به ويعبده ولا يشرك به غيره ، فاذن فمن أظلم ممن عادى من آمن بمن وجب الأيمان به عقلا ونقلا ، « ان كنتم خرجتم » من بلدتكم ووطنكم مكة « جهاداً في سبيلي » اي لاجل الجهاد في سبيل ديني ، فلا تتخذوهم اولياء فان أول خطوة من خطوات الجهاد هي ترك أعداء الله وعدم التحابب مع الكافرين بدينه وشريعته فلا يمكن الجمع بين الجهاد وموالاة من تجاهده أبداً ومن فعل ذلك فهو منافق . « ومرضاتي » اي ان خرجتم لاجل رضائي فلا توالوا من كفر أو أشرك فانه لو فعلتم ذلك فلا ارضى عنكم . ثم اخبر تعالى بان بعضهم كحاطب فعل ذلك فقال :

« تسرون اليهم بالمودة » أي انكم توادوهم سرا لكي لا يعلم به باقي المؤمنين ولكن هذه الخيانة ليست مع المؤمنين فقط بل هي خيانة معي أيضاً ، فان استطعتم أن تخفوها من المؤمنين فلا تستطيعون اخفاءها مني حيث « وأنا اعلم بما اخفيتم وما أعلنتم » فلا يخفى علي شيء « ومن يفعله » أي وكل من يقيم الموالاة مع الكافرين « منكم » ايها المسلمون . « فقد ضل سواء السبيل » اي انحرف عن الاسلام ودين الله تعالى فموالاة الكفرة والاتحاد معهم والتجسس لهم على المسلمين كفر فان قيل المسلم اذا كفر ارتد واذا ارتد وجب قتله فلم لم يترك رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم عمر ليقتل حاطباً ؟ الجواب بوجوه :

الأول : ان هذا الحكم لم يكن موجوداً قبل فعل حاطب ذلك فلذلك لم يقتل لأن الحكم لا يسري على الماضي وانما من فعل ذلك بعدها يقتل ويدل على ما قلنا ان الله تعالى قال « ومن يفعل ذلك » اي بعد نزول هذه الآية « فقد ضل سواء السبيل » .

الثاني : هو ان حاطبا لم يفعل ذلك تجسسا وحبا في استيلاء الكافرين على المؤمنين بل ان كتابه كان يأمر الكافرين بأن يخضعوا للرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وأعلمهم بأنهم لا يستطيعون مقاومته أبداً

فليستسلموا وليؤمنوا وانما يكفر من تجسس واراد استيلاء الكافرين على المسلمين وكان كأجير وعسيل لهم • فان معنى موالاة الكافرين من دون المؤمنين هو أن تحب سيطرتهم على بلاد الأسلام والمؤمنين فان ذلك يقتل فاعله •

فما حصل من حاطب لم يكن من هذا القبيل وانما نزلت الآية في حقه عتاباً ولئلا يتطور الأمر الى أكثر وسداً للذريعة والباب مطلقاً من موالاة الكافرين • والآيات التي تنهى عن موالاة الكافرين كثيرة نورد بعضها :ـ

١ ـ قال تعالى في سورة آل عمران الآية ٢٨ ( لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء الا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه والى الله المصير ) •

٢ ـ قال تعالى في سورة النساء الآية ١٣٨ـ١٣٩ ( بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً • ألذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين يبتغون عندهم العزة فان العزة لله جميعاً ) •

٣ ـ قال تعالى في سورة النساء الآية ١٤٣ ( يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون ان تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً ) أي حجة واضحة في عذابه لكم ••

٤ ـ قال تعالى في سورة المائدة الآية ٥٤ ( يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم اولياء بعض ومن يتولهم منكم فأنه منهم ان الله لا يهدي القوم الظالمين ) •

٥ ـ قال تعالى في سورة المائدة الآية ٦٠ ( يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله ان كنتم مؤمنين ) •

٦ ـ قال تعالى في سورة المائدة الآية ٨٣ ـ ٨٤ ( ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم انفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون • وَلَوْ كانوا يُؤْمنونَ باللهِ والنّبيّ وما أنزل الِيْه ما اتّخذوهم أَوْلياءَ ولكنّ كثيراً مِنْهُم فاسِقونَ ) •

٧ ـ قال تعالى في سورة المجادلة الآية الأخيرة ( لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباهم أو أبناءهم أو أخوانهم او عشيرتهم ... الخ الآية ) .

٨ ـ قال تعالى في سورة الممتحنة « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم ... الخ » .

الى غير ذلك من الآيات وهنا نسأل هل طبق كل المسلمين هذه الآيات ؟ الجواب : كلا . ثم نسأل هل هؤلاء مسلمون ؟ الجواب : كلا . ثم كلا ، بل هم شر من الكافرين لانه لولا هم لما امكن للكافر الاستيلاء على بلاد المسلمين واستعمارهم .

ثم بعد أن نهى الله تعالى عن موالاة الكافرين ذكر ان موالاتهم لا تفيد من يواليهم فقال :

« أنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أعْداءً ويَبْسطُوا إلَيْكُم أيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بالسوءِ وَوَدّوا لوْ تكفُرُونَ » .

« ان يثقفوكم » أي كيف توالونهم وانهم ( ان يثقفوكم ) ان يظفروا بكم ووقعتم في ايديهم « يكونوا لكم اعداء » أشداء . ويبسطوا » أي ويمدوا « اليكم » أيها المؤمنون « أيديهم والسنتهم بالسوء » أي بالضرب والقتل والسب والشتم « وودوا لو تكفرون » اي ولا يرضون منكم الا بعد ان تكفروا وذلك كما قال تعالى « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير » سورة البقرة ثم ان الله تعالى بين ان الذين يوالون الكافرين انما يفعلون ذلك للمحافظة على اولادهم او اقربائهم كما قال حاطب بن بلتعه : فأحببت أن اتخذ فيهم يدا يحمون بها قرابتي فرد الله تعالى على هذه الفكرة فقال :

« لَنْ تَنْفعَكمْ أرحامُكُمْ ولا أولادكُمْ يومَ القِيامة يَفْصِلُ بينكم والله بما تَعمَلونَ بصيرٌ » .

« لن تنفعكم ارحامكم » اي اهل قرابتكم . « ولا اولادكم يوم القيامة » واذا كان الامر كذلك فلماذا تعصون الله لاجلهم . « يفصل » اي

يفرق يوم القيامة « بينكم » بين القريب وقريبه والأنسان وأولاده فلا يستطيع ان ينفع احد غيره • « والله بما تعملون بصير » فيجازيكم عليه •

ثم ذكر تعالى من أبطال التوحيد ومن أعلام المسلمين ومن المؤمنين المجاهرين بالدعوة والجلدين تجاه كل كافر حتى اقرباءهم وآباءهم وقومهم وعشيرتهم وهم سيدنا ابراهيم ومن معه من المؤمنين وأمرنا تعالى بالاقتداء بهم في المصارحة مع الكافرين وفي منابذتهم لهم فقال :

« قَدْ كانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسنةٌ في إبْراهِيمَ وَالذَّينَ معهُ إذْ قالوا لِقومِهِمْ انّا بَرءاؤْ منكم ومِمّا تَعْبُدُونَ مِنْ دون الله كَفَرْنا بِكُمْ وَبَدا بَيْننا العداوة والبغْضاءُ أَبداً حتى تُؤمِنوا بالله وَحْدَهُ إلاّ قولَ إبراهيمَ لأبيه لأَسْتَغفِرَنَ لَكَ وما أملِكُ لَكَ مِنَ الله مِنْ شيء ربّنا عَلَيْكَ توكّلنَا وإليْكَ أنبْنا وَإليْكَ المصيرْ»•

« قد كانت لكم » ايها المؤمنون « اسوة حسنة » اي اقتداء حسن • وفي وصف الاسوة بالحسنة افادة أن غير هذه الأسوة قبيحة يجب على المسلم اجتنابها • « في إبراهيم ومن معه » وتلك الأسوة والاقتداء بابراهيم ومن معه من المؤمنين هي « اذ قالوا » اذ أعلنوا ايمانهم وقالوا لقومهم « إنا برءاؤ » أي بريئون « منكم ومما تعبدون من دون الله » وهي الأصنام « كفرنا بكم » أي كرهناكم وكرهنا عقيدتكم « وبدا » وظهر « بيننا العداوة والبغضاء » بسبب الأختلاف في العقيدة فان إختلاف العقيدة تورث العداوة بين أصحاب العقيدتين اذ كان صاحب العقيدة صادقاً في عقيدته « حتى تؤمنوا بالله وحده » اي ان العداوة مستمرة بيننا حتى تؤمنوا بالله وحده وتعبدوه ولا تشركوا به شيئاً « إلا قول إبراهيم لأبيه » المعنى اقتدوا بابراهيم ومن معه في هذه المصارحة والمنابذة ولكن لا تقتدوا بابراهيم في قوله لأبيه « لأستغفرن لك » فان الأستغفار للكافرين غير جائز • وابراهيم انما فعل ذلك حيث لم يكن عالماً بذلك قبل ، فلما علم حرمة الاستغفار للكافرين ندم وتاب من ذلك العمل •

« وما أملك لك من الله من شيىء » مما ينفعك فالله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد •

« ربنا عليك توكلنا » أي فوضنا أمورنا اليك « واليك أنبنا » أي إليك رجعنا « واليك المصير » أي الرجوع يوم القيامة للمحاسبة على الأعمال والجزاء وفقها •

وهكذا يجب أن يكون المسلم فيجب أن يكون عدواً لكل كافر حتى يؤمن بالله ويعتنق الاسلام ولو كان من أهله وعشيرته وأولاده • « ربنا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً للذِّينَ كفروا واغفِرْ لنا ربَّنا إنّكَ أنْتَ العزيزُ الحَكيمْ » •

« ربنا لا تجعلنا فتنة » أي محل امتحان « للذين كفروا » بأن يغلبوا علينا فيظنوا أنهم على حق « واغفر لنا » ذنوبنا « ربنا انك انت العزيز » الغالب على كل امر اردته من نصرتهم علينا او نصرتنا عليهم « الحكيم » اي ولا تعمل شيئاً من ذلك إلا لحكمة أنت اعلم بها ونحن عنها غافلون •

« لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنةٌ لِمنْ كانَ يرْجو الله وَالْيَوْمَ الآخرَ وَمَنْ يَتولَّ فإنَّ الله هُو الغنيُّ الحَميد » •

« لقد كان لكم فيهم » اي والله لقد كان لكم أيها المسلمون فيهم أي في ابراهيم ومن معه « أسوة » أي اقتداء وقدوة « حسنة » « لمن كان يرجو الله » اي رحمة الله ورضوانه « واليوم الآخر » اي التنعم والحياة السعيدة فيه فهؤلاء هم الذين يقتدون بابراهيم ومن معه هذا الاقتداء الحسن ويعادون الكفرة ولا يوالونهم « ومن يتول » أي ومن يعرض عن هذا الاقتداء فانه يخسر وحده ولا يلحق بالله اي ضرر حيث « فان الله هو الغني » عن كل الناس وعن عبادتهم « الحميد » في ذاته وصفاته سواء عبده الناس أو لم يعبدوه •

هذا ولما نزلت هذه الآيات اصبح المسلمون يعادون أقربائهم بشدة ، ووجدوا في ذلك مشقة في أنفسهم فبشرهم الله تعالى بأنهم ان يصمدوا فان الله يهدي أقربائهم فيؤمنون ويحصل بينهم مودة في الأسلام فقال تعالى :

« عَسى الله أنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبينَ الّذين عادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدّةً والله قَدير والله غَفورٌ رَحيمٌ » •

« عسى الله » اذا نسب عسى او لعل الى الله تعالى فانه للتحقيق فمعناه قد قرب « أن يفعل » الله « بينكم وبين الذين عاديتم منهم » أي من الكافرين « مودة » أن صمدتم وصبرتم على اطاعة أمر الله في عداوتهم وذلك بأن يهديهم الله تعالى فيؤمنوا ويكونوا اخوة لكم في الايمان • وقد أنجز الله وعده هذا فاسلم هؤلاء بعد فتح مكة وهذه معجزة القرآن حيث اخبر عن المستقبل فوقع الأمر كما أخبر « والله قدير » على ان يجعل بينكم هذه المودة « والله غفور » لكل من ندم وتاب وآمن من الكفار « رحيم » أي ناشيء مغفرته هذه من رحمتة فقط لامن شيىء آخر •

« تنبيه »

ان هذه الأوامر الشديدة من عداوة الكافرين وعدم موالاتهم انما هي في حق الكافر الحربي اي الذي انشأ القتال مع المسلمين او استولى على بلاد المسلمين أو يريد الاستيلاء عليهم بالطرق السياسية فهؤلاء كلهم يجب معاداتهم ويحرم موالاتهم ، واما الكافر الذمي أو المعاهد والذي لم يستول عليكم ولا يريد السيطرة على المسلمين أو بلادهم فيجوز موالاتهم والتعامل معهم بالحسنى كما قال تعالى ٠

« لا يَنْهاكُمُ الله عن الّذينَ لَمْ يُقاتِلوكُمْ في الدين ولَمْ يُخْرِجوكم مِنْ ديارِكُم أن تَبَرّوهُمْ وتُقْسِطوا إليهمْ إنّ الله يُحب المُقْسِطيْن » •

« لا ينهاكم الله عن » الكافرين « الذين لم يقاتلوكم » في الدين حرباً أو سياسة « ولم يخرجوكم من دياركم » « أن تبروهم » اي لا ينهاكم الله أن تكرموهم وتحسنوا اليهم قولا وفعلا لا أن تولوهم أموركم فأنه لا ولاية لكافر على مسلم • « أو تقسطوا » وتعدلوا وتؤدوا حقوقهم اليهم « ان الله يحب المقسطين » اي العادلين •

« إنّما يَنْهاكُمُ الله عن الذّين قاتَلوكُمْ في الدّين وأَخْرَجوكُمْ

مِنْ دِيارِكُمْ وَظَاهَرُوا على إخراجِكُمْ أَنْ تولَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فأولئِكَ هُمُ الظَّالِمونَ » .

« انما ينهاكم الله عن » موالاة الذين « قاتلوكم في الدين » اي لأجل العقيدة وفي ضدها « واخرجوكم من دياركم » كالاسرائيليين الذين طردوا المسلمين من فلسطين « وظاهروا » والذين ظاهروا اي عاونوهم وأيدوهم « على اخراجكم ان تولوهم » اي أن تصادقوهم وتوالوهم « ومن يتولهم » أي يتحابب معهم « فاولئك هم الظالمون » المتجاوزون حدود الله التي حدها لكم .

ثم بعدما أمر الله تعالى بترك موالاة الكفار وحينئذ كان بعض المؤمنين في مكة فوجب عليهم الهجرة منها ليتمكن لهم ترك موالاة المشركين وكانت ممن هاجر مسلمات كان ازواجهن كفاراً فأنزل الله تعالى حكم هؤلاء النساء فقال تعالى :

« يا أيُّها الذّينَ آمنوا إذا جاءَكُمُ المؤمناتُ مُهاجراتٍ فامْتَحنوهُنَّ الله أعْلَمُ بإيمانهنَّ فإنْ عَلِمْتُموهُنَّ مؤمناتٍ فلا تَرْجِعُوهُنَّ إلى الكُفَّارِ لاهُنَّ حِلٌّ لَهمْ وَلا همْ يحلّونَ لَهنَّ وآتوهُمْ ما أنْفقوا وَلا جُناحَ عَلَيكُمْ أَنْ تَنكِحوهُنَّ إذا آتيتمُوهُنَّ اجورَهُنَّ وَلا تُمْسِكوا بِعِصَمِ الكوافِرِ وَاسئَلوا ما أنْفَقْتُم وَلْيَسئَلوا ما أنْفَقُوا ذلِكمْ حكْمُ الله يحكمُ بينكمْ والله عَليمٌ حَكيمٌ » .

« يا أيها الذين آمنوا اذا جاءكم المؤمنات » أي النساء اللائي تدعين أنهن مؤمنات « مهاجرات » أزواجهن من الكفار « فامتحنوهن » أي فاختبرهن ليظهر لكم صدق قولهن « الله أعلم بأيمانهن » معناه الله يعلم ايمانهن وجوداً وعدماً وانما ذلكم الأمتحان لكم ولتعلموا هل هن هاجرن لأجل الأيمان أو لكراهة الزوج او لعشق رجل منكم « فان علمتموهن مؤمنات » صادقات « فلا ترجعوهن الى الكفار » فانه « لاهن حل لهم » لأنهن مسلمات ولا تحل المسلمة لكافر « ولاهم يحلون لهن » لانهم مشركون

ولا يحل نكاح المشرك المسلمة وان علمتموهن كاذبات في الأيمان فارجعوهن الى الكفار واذا صدق ايمانهن « فلا ترجعوهن » لأن النكاح قد انفسخ بايمانهن .« وآتوهم » اي واعطوا الكفار «ما انفقوا» من المهور التي سلموها الى تلك النساء « ولا جناح » اي ولا حرج ولا اثم « عليكم » ايها المؤمنون « أن تنكحوهن » أي تلك النساء المهاجرات لأن نكاحهن الأول بطل من أزواجهن باسلامهن « اذا آتيتموهن أجورهن » أي صداقهن ثم بعد ان حكم تعالى ببطلان نكاح الكافرة من زوجها الكافر اذا أسلمت ذكر ان المسلمة اذا ارتدت يبطل نكاحها من زوجها المسلم ايضاً فقال « ولا تمسكوا بعصم الكوافر » اي ولا تعتبروا «بعصم الكوافر»اي بنكاحكم الذي هو بينكم وبين الكافرات فان كفرها يفسخ النكاح بينكم ولما أنزل الله هذا الحكم طلق الاصحاب كل امرأة كافرة بقيت في مكة على كفرها ولم تؤمن فلم تهاجر مع زوجها المسلم « واسئلوا » أي واطلبوا الكفار ما أنفقتم من المهور على تلك النساء الكافرات . « وليسئلوا ما أنفقوا » من المهور على نساءهم اللاتي أسلمن « ذلكم حكم الله » يحكم بينكم هذا الحكم فنفذوه « والله عليم » بحال الطرفين « حكيم » لا يحكم حكماً الا وفيه حكمة ومصلحة لكل الناس وبعد نزول هذا الحكم كان المسلمون يعطون مهور النساء المهاجرات للكفار ولكن الكفار لم يعطوا ولم ينفذوا حكم الله هذا فخسر بعض المسلمين فقال تعالى :

« وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ » .

« وان فاتكم شيء من أزواجكم الى الكفار » بأن ارتدت امرأة مسلمة وتركت زوجها وخرجت الى الكفار ولم يعط الكفار زوجها مهرها « فعاقبتم » أي فغزوتم الكفار وأخذتم غنيمة أو فيئاً منهم « فآتوا » فاعطوا « الذين ذهبت أزواجهم» الى الكفار « مثل ما أنْفَقُوا » على تلك الأزواج من المهور تعويضاً لما فاتهم « واتقوا الله » اي اتقوا عذابه بتنفيذ ما حكم به « الذي »

اي الله الذي « انتم به مؤمنون » فالمعنى ان الأيمان بالله يجب ان يبعث صاحبه على تنفيذ ما حكم الله والا فالأيمان بدون الأمتثال كشجرة بلا ثمرة كما أن الأمتثال بدون الأيمان كبناء فوق الماء لا يقوم ولا يستقيم ولا يفيد •

ثم بعد ان ذكر الله تعالى حكم النساء الكفافرات اللاتي يهاجرن الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وأمره أن يمتحنهن والامتحان كانت بالبيعة بين تعالى الامور التي تبايع النساء عليها فقال :

« يا أيها النَّبِيُّ إِذا جاءَكَ الْمُؤْمِناتُ يُبايِعْنَكَ عَلى أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئاً وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » •

قال القرطبي في صحيح مسلم عن عائشة زوج النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قالت : كانت المؤمنات اذا هاجرن الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يمتحن لقول الله تعالى « يا أيها النبي اذا جاءك المؤمنات يبايعنك •••• الى آخر الآية » •

« يا أيها النبي اذا جاءك المؤمنات » اي النساء اللاتي تردن ان تؤمن وتدخلن في الاسلام وجئن • « يبايعنك على ان لا يشركن بالله شيئاً » في العبادة والتقديس وما خص بالله من الأوصاف والافعال • « ولا يسرقن » مالا • « ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن » فقد كان الجاهليون يقتلن بناتهن ويدفنونهن وهن أحياء خوف العار أو خوف الفقر •

« ولا يأتين ببهتان » اي بولد ملقوط بهتاناً وكذبا • « يفترينه » اي ينسبنه افتراء وكذباً • « بين يديهن » اي الى بطنهن الذي هو بين أيديهن وأرجلهن ويقلن لأزواجهن هذا ولدي منك وليس منها ولا منه ولا يعصينك في كل ما أمرتهن من « معروف » وكل أمره معروف وخير « فبايعهن » أي فاقبل بيعتهن هذه « واستغفر لهن الله » اي واطلب لهن من الله تعالى أن يغفر لهن عما ارتكبن فيما مضى •

« إن الله غفور » إذا استغفرت لهن فيغفر لهن . « رحيم » ومغفرته لمجرد رحمته لا لشيىء آخر . فأنه غني عن العالمين . قالت السيدة عائشة رضي الله عنها : فمن أقر بهذا من المؤمنات فقد أقر بالمحنة ، وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم اذا اقررن بذلك قال لهن انطلقن فقد بايعتكن . ولا والله ما مست يد رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يد امرأة قط ، غير انه بايعهن بالكلام هذا وحينما فتح مكة بايع النساء بعد بيعة الرجال مثل هذه البيعة ثم بعد ان ذكر تعالى ما يجب عليهم تجاه المشركين من عدم الموالاة وغير ذلك مما أحاطت به السورة نهى ان يتولى المسلمون اليهود والنصارى فقال :

« يا أَيُّها الذَّين آمَنو ْا لا َ تَتَوَلَّوا قَو َماً غضِبَ الله عليهم ْ قد ْ يئِسو ْا مِنَ الآخِرةِ كما يَئِسَ الكفار ُ من ْ أصْحابِ القْبو ْرِ » .

« يا أيها الذين امنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم » لانهم كانوا يعلمون صدق الرسول في قوله انه رسول الله لما وجدوا ذلك في التوراة والأنجيل ولكنهم كفروا عناداً وحسداً واستكباراً ومن ضل عن علم فهو مغضوب عليهم ومن ضل عن جهل فهو ضال . « قد يئسوا من الآخرة » اي قد تيقنوا أنهم ليس لهم حظ في الآخرة لعملهم هذا كما « يئس » أي كما تيقن « الكفار » الذين ماتوا وأصبحوا « من أصحاب القبور » حرمانهم حيث شاهدوا الحق وعلموا حسابهم ومكانهم في جهنم فيقين هؤلاء مثل يقينهم لما وجدوا في التوراة والانجيل فلم يعملوا به وعلموا ان من لم يعمل به ولم يؤمن بمحمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فهو في النار خالداً فيها . أو معناه كما يئس الكفار بالبعث والاحياء بعد الموت من أصحاب القبور واعتقدوا انهم لا يبعثون ولا يعودون لحياة الآخرة بعد ما بليت عظامهم وأبدانهم ولا يجتمعون معهم أبداً .

اللهم لا تجعلنا ممن ييأس من رحمتك ولا تحرمنا من مغفرتك ومتعنـا بلطفك ونعمتك في

الدنيـــا والآخـرة آمـين

والحمـد للـــه رب

العالمـــين

وصلـــى

الله

على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين الى يوم الدين .

١٤٠٦/٢/١٢ هجرية

# « سورة الصف »

« مدنية ، نزلت بعد التغابن وآياتها أربع عشرة »
« سميت بالصف لقوله تعالى « يقاتلون في سبيله صفا الخ »

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

« سَبَّحَ للهِ ما في السَّمواتِ وَما في الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الحَكِيمُ »

« سبح » اي اعترف ودل على نزاهة الله تعالى كل « ما في السموات وما في الارض » فدلت كل ذلك على ان الله تعالى منزه عن ان يعجز عن قهره الكافرين أو ابادتهم أو تذليلهم فان من قدر على خلق هذا الكون لقادر على تذليل الكفرة ، وانه ما فرض الجهاد عليكم أيها المؤمنون لعجزه عن ذلك فانه على كل شيىء قدير « وهو العزيز » اي الغالب على كل ما أراد لا يمنعه من تنفيذ ارادته كل ما في الكون من قوة وسلطان بل انما فرض عليكم الجهاد لحكمة أرادها هو فانه « الحكيم » ذو حكمة لا يعمل شيئاً الا وفيه مصلحة كبيرة وحكمة عظيمة هو يعلمها . ثم أنب تعالى المؤمنين على تكاسلهم عن الجهاد وقتال الكفار فقال وعز من قائل :

« يا أيها الذينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مالا تَفعَلُونَ »

روى المفسرون في سبب نزول الآية روايات كثيرة وملخص كلها هو ان المؤمنين قالوا : لو نعلم اي الاعمال أحب الى الله لعملناه ، ثم نزل الامر بالقتال فكرهه بعضهم وتكاسلوا عنه فقال تعالى « يا ايها الذين آمنوا لم تقولون ما » اي شيئاً « لا تفعلون » وتتكاسلون عنه . ثم بين الله تعالى ان القول بشيىء دون العمل مبغوض عند الله تعالى فقال تعالى :

« كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مالا تَفْعَلُونَ » .

في الآية الكريمة تقديم وتأخير فالتقدير كبر أن تقولوا مالا تفعلون مقتا عند الله فكبر فعل ماض وجملة « أن تقولوا ما لا تفعلون » مؤولة بالمصدر

ويكون فاعلاً لكبر فالتقدير كبر قولكم مالا تفعلون مقتاً عند الله • ومقتاً تمييز ، والتمييز اما ان يكون محولا عن الفاعل الأصلي أو المفعول به وهنا محول عن الفاعل فالتقدير كبر قولكم ما لاتفعلون مقته اي كبر مقت قولكم ما لا تفعلون • وذلك مثل طاب زيد نفسا اي طاب نفس زيد • والمقت مصدر بمعنى المفعول فالمعنى كبر ممقوتية أي مبغوضية قولكم ما لا تفعلون عند الله والحاصل ان قولكم مالا تفعلون مبغوض عند الله جداً فلا ترتكبوه ، واذا قلتم شيئاً مما هو مشروع فأفعلوه ثم أراد الله تعالى أن يبين ما هو أحب الأعمال اليه فقال :

« إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ » •

« ان الله يحب » أي يكرم ويقدر « الذين يقاتلون في سبيله » اي في سبيل نصرة دينه واعلاء كلمته ورفع راية الأسلام « صّفاً » اي مصطفين « كأنهم بنيان مرصوص » رصّ اي شدّ بعضه الى بعض فالمعنى يحب الله من يثبت في الجهاد في سبيل الله ويلزم مكانه كثبوت البناء الشديد تلاصقه •

ثم اراد تعالى ان يذكر موقف قوم موسى مع موسى وقوم عيسى مع عيسى ومخالفتهما لهما وملامة الله تعالى لهم تحذيراً لأمة محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم من مخالفة رسولهم فيما يأمرهم به من الجهاد وغيره فقال وعز من قائل مبتدأً بقصة موسى عليه السلام :

« وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ » •

« واذ قال موسى » أي واذكر محمد لقومك ليعتبروا « اذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني » بمخالفتي وعدم اطاعتي « وقد تعلمون » بسبب المعجزات التي أظهرتها لكم « اني رسول الله اليكم » فلا آمركم الا بما أمر الله ولا أنهاكم الا عن ما نهى الله تعالى عنه •

« فلما زاغوا » أي فلما خالف القوم موسى « أزاغ الله قلوبهم » أي

أمال الله قلوبهم عن الحق وأضلهم « والله لا يهدي القوم الفاسقين » جبراً بل يهديهم إذا اختاروا الهداية ويضلهم اذا اختاروا الضلالة ولذلك حينما زاغوا عن الحق ازاغهم • ثم بعدما ذكر تعالى قصة قوم موسى اتبعه بقصة قوم عيسى فقال :

« وَإِذ قالَ عيسى ابْنُ مَرْيَمَ يا بني إِسرائيل إِني رَسولُ الله إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يدَيَّ مِنَ التوراة ومُبشراً بِرَسولٍ يأْتي مِنْ بَعْدي اسْمُهُ أحْمَدُ فلمَّا جاءَهُمْ بالبيِّنات قالُوا هذا سِحْرٌ مُبينٌ » •

« واذ » اي واذكر يا محمد لقومك « اذ قال عيسى ابن مريم يا بني اسرائيل اني رسول الله اليكم مصدقا لما » أي لشريعة ودين « بين يدي » اي جاء قبلي وهو ما أنزل الله « من التوراة » فأصدقها وأعمل بها « ومبشراً » أي ومبشرا لكم « برسول » من الله « يأتي من بعدي اسمه أحمد » وهو نبينا وخاتم الأنبياء والمرسلين محمد « فلما جاءهم » اي فلما جاءهم عيسى « بالبينات » بالمعجزات الكثيرة كأحياء الموتى وابراء الأكمة والأبرص وغير ذلك « قالوا هذا » الذي جاء به عيسى « سحر مبين » وانه ليس برسول ثم بين الله تعالى حال هذا القوم ووصفهم بارتكابهم أعلى درجات الظلم فقال :

« وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرى على الله الكَذِبَ وَهُو يُدْعى إِلى الإِسْلامِ والله لا يَهْدي القَوْمَ الظالمينَ » •

« ومن اظلم » الاستفهام للنفي اي لا تجد اظلم « ممن افترى على الله الكذب » حيث وصف معجزاته التي اظهرها على يد رسوله بالسحر ولم يعتبر بها « وهو يدعى الى الاسلام » أي الى الانقياد لله وتبعية رسوله « والله لا يهدي القوم الظالمين » جبرا فكيف يهدي من هو اظلم الظالمين بل جعل الاختيار بيدهم فلما اختاروا طريق الغواية ظلما كتب الله عليهم الضلال والغواية • ثم وصف الله تعالى هؤلاء الاقوام الذين يقفون ضد رسلهم ويصدون الناس عن اتباعهم فقال :

« يُريدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بأَفْواهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نورِهِ ولَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ » .

« يريدون » اي يريد هؤلاء الظالمون وأمثالهم من كل فئة ضالة معادية لرسالة الرسل وتطبيق شريعتهم « ليطفئوا نور الله بأفواههم » شبه الله تعالى أمثال هؤلاء الذين يريدون اطفاء نور الإسلام بأفواههم وأقوالهم الكاذبة ودعاياتهم الباطلة بالذين يريدون اطفاء نور عظيم بنفخ يخرج من أفواهم ولا يستطيعون ذلك لأن هذا النور أناره الله تعالى « والله متم نوره ولو كره الكافرون » وعلى رغمهم وهذه القصص والآيات كلها جاءت لتبشر الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بالنصر واتمام أمره ولتهديد كل من وقف ضد دعوته ونشر شريعته في كل زمان ومكان وقد صرح بذلك فقال :

« هُوَ الذّي أرْسَلَ رَسُولَه بالْهُدى وَدين الحقّ ليُظْهِرَهُ عَلى الدِّينِ كلّه وَلَوْ كرِهَ المُشرِكُونَ » .

« هو الذي » اي ان الله هو الذي « أرسل رسوله » محمداً صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « بالهدى ودين الحق » وهو دين الاسلام « ليظهره » اي ليظهر ويعلي هذا الدين الحق « على الدين » اي على الأديان كلها وقد فعل تعالى ذلك فأصبح جميع الملل والامم منقادة للمسلمين وخاضعة لحكمهم « ولو كره المشركون » أي ولو كره اعلاء كلمة الاسلام المشركون . وهذه الآية تفيد ان كل من لا يقبل حكم الاسلام وتطبيقه فهو مشرك بالله تعالى حيث لا مشرع الا الله فمن اراد تشريعاً آخر غير تشريع الله فقد كفر بالله واشرك به . ثم بعد ان أخبر الله تعالى ان هذا الدين جاء ليعلى فوق كل دين وعلم ان المشركين والكافرين يكرهون ذلك ويعارضونه وينجر ذلك الى التصادم بين المسلمين والكافرين أمر تعالى المسلمين بالجهاد في سبيل اعلاء هذا الدين وجعل للمجاهدين أجراً عظيماً فقال وعز من قائل :

« يا أيّها الذّينَ آمَنوا هَلْ أدُلّكُمْ عَلى تجارَةٍ تُنْجيكُمْ مِنْ عَذابٍ أليمٍ تُؤْمِنُونَ باللهِ وَرَسولهِ وتُجاهِدُونَ في سَبيل

الله بِأموالِكُمْ وأَنْفُسِكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُم تَعلَمونَ » .

« يا أيها الذين آمنوا » بالله واليوم الآخر وبالأسلام « هل أدلكم على تجارة تنجيكم » أي ينجيكم الله بها « من عذاب اليم » موجع جداً . والاستفهام للتقرير فمعناه أدلكم عليها وهي أنه « تؤمنون بالله ورسوله » أي تثبتون على الأيمان بالله ورسوله ولا ترتابون في ذلك الأيمان «وتجاهدون» اي وتعملون بجهد ومشقة « في سبيل الله » أي في سبيل نشر دينه واعلاء كلمته « بأموالكم » اي بصرف أموالكم وأنفسكم « ذلكم » أي ذلكم الجهاد « خير لكم » من كل شيء في الدنيا والآخرة . اما للدنيا فلأن الجهاد يكون سبباً للعزة والسيادة في الأرض . وأما في الآخرة فلنيل الكرامة من الله تعالى والفوز بحياة سعيدة لا تفنى ولا تزول « ان كنتم تعلمون » العاقبة الحسنى التي يورثها الجهاد لما تكاسلتم عنه ثم عبر تعالى عن خيرية الجهاد وعن ثمرته في الدار الآخرة فقال تعالى :

« يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تجْري مِن تَحتِهَا الأنْهارُ وَمساكِنَ طيبةً في جَنّاتِ عَدْنٍ ذلِكَ الفوْزُ العَظِيم » .

« يغفر لكم » مجزوم بتقدير شرط تقديره ان تجاهدوا ... الخ يغفر لكم أيها المؤمنون بسبب الجهاد « ذنوبكم » كلها « ويدخلكم جنات » بساتين « تجري من تحتها » أي تحت أشجارها الأنهار للسقي « ومساكن طيبة في جنات عدن » أي محل اقامة دائمة لا رحيل عنها ولا خروج ولا ضجر فيها ولا انزعاج « ذلك » الجزاء « هو الفوز » النيل بالمطلوب « العظيم » الذي لا يوصف ولا يدرك كنهه الا من ناله . ثم اتبع الله تعالى ذلك بذكر ثمرة الجهاد في الدنيا فقال وعز من قائل :

« وَأخرى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ الله وَفَتْحٌ قَريبْ » .

« وأخرى » وثمرة اخرى تحصلونها من الجهاد في الدنيا « تحبونها » أي تحبون نيل هذه الثمرة وهي « نصر من الله » فينصركم على الكافرين

« وفتح قريب » أي وفتح لما تريدون فتحه من البلاد « قريب » ذلكم الفتح « وبشر المؤمنين » أي وبشرهم يا محمد بهاتين الثمرتين نتيجة الجهاد اي الفوز العظيم يوم القيامة والنصر والفتح القريب في الدنيا وهذه من معجزات القرآن فانه أخبر عن النصر والفتح فكانا كما أخبر ووقع الامر كما بشر •

ثم أراد تعالى أن يحث المؤمنين على القتال بمدح طائفة من السابقين بالجهاد ونصرة دين الله تعالى ووعدهم بالتأييد والنصر والظفر بالكافرين كما ايد من قبلهم على أعداءهم فغلبوا عليهم فقال وعز من قائل :

« يا أيُّها الذّينَ آمَنُوا كُونُوا أنْصار الله كَما قالَ عيسى بنُ مَرْيَم لِلْحواريين منْ انصَاري إلى الله قالَ الحوارّيُون نَحْنُ أنْصارُ الله فآمَنَتْ طائِفَةٌ مِنْ بني اسْرائيلَ وَكفَرَتْ طائِفةٌ فأيّدْنا الذّين آمنوا على عَدُوهِمْ فأصبَحوا ظاهِرِيْنَ » •

« يا أيها الذين آمنوا كونوا » كلكم « أنصار الله » أي أنصار دينه ومجاهدين في سبيل نشره « كما » نصر الحواريون دين الله وجاهدوا في سبيله حينما « قال عيسى ابن مريم للحواريين من انصاري الى الله » اي من ينصرني الى تلبية امر الله ونشر دينه في الأرض « قال الحواريون نحن » كلنا « انصار الله » اي انصار دينه « فآمنت » بعد نصر الحواريين لعيسى « طائفة » جماعة كثيرة « من بني اسرائيل » بعيسى واتبعوه « وكفرت طائفة » أي جماعة أخرى فوقع الخلاف بينهم واشتد النزاع ووقعت بين الطائفتين الحرب « فأيدنا الذين آمنوا » أي قويناهم ونصرناهم « على عدوهم » وهم الطائفة الكافرة وعبر عنهم «ب» « عدوهم » للاشارة الى ان الكفر والايمان متعاديان فلا يمكن الجمع بين الكافر والمؤمن والتحابب بينهما أبداً واذا رأيت شيئاً من ذلك فنفاق ودجل فان أختلاف العقيدة يورث اختلاف القلوب وذلك يورث النفرة والنفرة تورث العداء ولأن كل صاحب عقيدة ان صدق في عقيدته يريد اعلاءها على عقائد اخرى ومن هنا يقع الاصطدام حتما • « فأصبحوا » أي أصبح الذين آمنوا « ظاهرين » أي غالبين على عدوهم بتأييدنا ونصرنا

وهذا وعد من الله تعالى بأن كل من نصر دينه فان الله ينصره على اعداءه في اندين كما قال تعالى « ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم » .

فحينما نرى اليوم من عدم نصر المؤمنين ليس الا لأن المؤمنين لا يعملون بجد وأنهم ليسوا مؤمنين صادقين والا فان الله لا يخلف الميعاد .

اللهم ثبت قلوبنا على الايمان
وانصرنا على الاعداء وارزقنا
سعادة وسيادة الدنيا والآخرة
وما ذلك على الله بعزيز
فانه على كل شيء
قدير آمين

## « سورة الجمعة »

« سميت بالجمعة لما فيها من الامر بأداء صلاة الجمعة »
« مدنية ، نزلت بعد الصف ، آياتها احدى عشرة »

بِسْمِ اللّـهِ الرَّحمنْ الرَّحِيمْ

« يُسَبِّحُ لِلّـهِ ما في السَّموات وما في الأرض المَلِك القدّوس العزيز الحكيم » .

تمهيـــد :

في بيان حكمة تصدير هذه السورة بالتسبيح وهذه الاسماء الحسنى فنقول :

أولا : ان الله تعالى بعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وهو أمي ومن أمة أمية وجعله ينبع من فعله وقوله العلم واصبح النـاس متحيرين فيه ولا يزالون محيرين في علمه وحكمته الى يوم القيامة فقال تعالى : « يسبح لله » أي يدل ويعترف كل « ما في السموات وما في الأرض » بالنزاهة لله تعالى وانه منزه عن أن يعجز من أن يجعل رجلا أمياً وفي أمة أمية رسولا ويجعله منبعا للعلوم والمعارف . فان من قدر على خلق هذا النظام العجيب والكون البديع لقادر على ان يجعل الأمي عالماً ينطق بالحكمة ويهدي الناس الى صراط مستقيم .

ثانياً ان أهل الكتاب قد امتلأت قلوبهم غيظاً وحقداً وحسداً من ان الرسالة انتقلت من أولاد اسحق الى ولد اسماعيل ـ عليهما السلام ـ كما قال تعالى عنهم : « بئسما أشتروا به انفسهم ان يكفروا بما أنزل الله بغياً ان ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباؤوا بغضب على غضب وللكافرين

عذاب مهين » . ولذلك قال تعالى : « الملك » اي ان الله هو الملك والمتصرف في ملكه كيف يشاء فلا يؤثر فيه اقتراح الناس عليهم أو رغبتهم في أمر أو عن أمر آخر .

ثالثاً : ان بعضاً من المشركين كانوا لا يؤمنون بالرسول لأنه لم يكن من صناديد قريش وعظمائهم كما قال تعالى حكاية لقولهم « لولا انزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » .

وزعموا انه كما ان الملوك حينما يرسلون الى الناس وفداً ورسولا فانما يختارون لذلك من يكون من العظماء والصناديد فقال تعالى : « القدوس » اي المنزه عن صفة المخلوق فانه لا يعمل مثل ما يعمل الملوك العبيد بل يختار حسب ارادته من يشاء ويجعله رسولا الى العباد . « العزيز » اي الغالب على أمره لا يمنعه من تنفيذ ارادته شيء . « الحكيم » فلا يعمل شيئاً الا وفيه حكمة ناصعة فبعزته هذه ولحكمته التي أرادها اختار انساناً امياً ومن الأميين وجعله رسولا الى كافة الناس بشيراً ونذيراً كما قال وعز من قائل :

« هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » .

« هو الذي بعث » أي ارسل « في الاميين » اي في العرب سموا أميين لأن الأمية كانت غالبة عليهم أو لأنهم لم يكن لهم شريعة ولا كتاب « رسولا منهم » والرسول هو الانسان الذي أوحى الله اليه وأنزل عليه كتابا او أمره بنسخ بعض الأحكام التي كانت قبله ، وقد فصلنا الكلام على تعريف النبي والرسول والفرق بينهما في تفسير سورة يس عند قوله تعالى « انك لمن المرسلين » . « منهم » اي من الأميين وهو أمي مثلهم . « يتلو » اي يقرأ « عليهم » اي على الأميين « آياته » أي آيات الله تعالى والآيات جمع آية والآية جاءت لمعان كثيرة ذكرناها في تفسير سورة يوسف .

والمعنى الذي يليق هنا إما آيات القرآن وهي الفقرات من القرآن المفصولة عن أخواتها بشكل مدور ، واما احكام الله تعالى ويجوز ان يحمل

على المعنى الأول أو الثاني أو كليهما ليشمل الأحكام المبينة بالسنة أيضاً • « ويزكيهم » أي ويطهرهم من الكفر والشرك والجهل والخرافات • « ويعلمهم الكتاب » اي كتاب الله تعالى وهو القرآن • « والحكمة » أي والتفقه في الدين « وان » مخففة من الثقيلة تعمل في ضمير الشأن المقدر تقديره « وانه » اي وان الشأن والحال انهم « كانوا من قبل » اي قبل مجيىء محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « لفي ضلال » اي انحراف عن الطريق الحق « مبين » من أبان بمعنى بان اي اتضح اي ضلال واضح •

وحيث ان بعثة الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم عامة لكافة الناس ولكل الأمم قال تعالى :

«وَآخَرِيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ العزِيزُ الْحَكِيمْ»

« وآخرين » اي ويزكي الرسول ويعلم الامم الآخرين المغايرين « منهم » اي من العرب الكتاب والحكمة فيشمل كل الأمم الذين « لما يلحقوا » عند نزول هذه الآية « بهم » اي بالأميين في الأيمان بالرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وسيلحقون بهم • وفي هذه معجزة فأن القرآن أخبر بأن الأمم الاخرى سيلحقون بهم في الايمان حيث ان لما لنفى الشيء في الماضي مع توقع وجوده في المستقبل وتوقع القرآن للتحقيق فوقع كما أخبر • « وهو العزيز » الغالب على أمره فيهدي الأقوام الآخرين الى اعتناق الأسلام والتمسك بهذا الكتاب المستبين • « الحكيم » الذي جعل هذا الرسول لكافة الناس لحكمة أرادها • ثم ان كثيراً من الناس يقولون لماذا جعلت رسالة الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم عامة لكل الأمم ولماذا أرسل الله تعالى الرسول من قريش او لماذا أرسله من العرب ولم يرسله من قوم آخر الى غير ذلك مما يريدون أن يحكموا به على الله تعالى فلذلك قال تعالى :

« ذلِكَ فَضْلُ الله يُؤتِيهِ مَنْ يَشاءْ والله ذوُ الفَضْلِ العظيم »

« ذلك » اي هذه البعثة لرسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وجعله الى كافة الناس « فضل الله » اي نعمة الله تعالى • «يؤتيه» اي يعطى الله هذا الفضل « من يشاء » ويختاره فهو يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا اعتراض

على حكمه ولا راد لأمره يعز من يشاء ويذل من يشــاء وهو على كل شيء قدير • « والله ذو الفضل العظيم » لا يدرك كنه فضله وحكمة أمره الا هو •

ثم ان بعثة هذا الرسول كان موعوداً به في التوراة وقد أخذ العهد من أهل الكتاب أن يؤمنوا به عند ظهوره وقد ذكر لهم أوصافه وعلاماته فيهــا بحيث لم يكن ليخفى عليهم أنه هو ، الا انهم حينما جاءهم وعرفوه خالفوا التوراة وحرفوا كل ما يتعلق بالرسول وأوصافه وعلاماته ولم يعملوا بالتوراة ولذلك ذمهم الله تعالى فقال :

« مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ القَوْمِ الذينَ كَذَّبُوا بآياتِ الله والله لا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينْ » •

« مثل الذين حملوا التوراة » اي حال الذين كلفوا بالعمل بالتوراة وامتثال ما فيها « ثم لم يحملوها » اي ثم لم يعملوا بها ولم يؤمنوا بالرسول الذي أمرتهم التوراة بالأيمان به وقد تركوا كثيراً من احكام التوراة غير هذا الحكم أيضا فحالهم في عدم الاستفادة من التوراة « كمثل الحمــار » اى كحال الحمار حال كونه « يحمل أسفاراً » اي يحمل كتب العلم ولا يستفيد منها « بئس مثل » اي بئس مثل وحال القوم « الذين كذبــوا بآيات » اي باحكام « الله » •

هذا الحال الذي ذكرناه من حال اهل التوراة الذين لم يعملوا بالتوراة فكذبوا بما فيها من احكام الله وكذبوا بالقــرآن فلم يؤمنوا بما فيــه من الأحكام • « والله لا يهدي » جبراً « القوم الظالمين » الذين ظلموا وكتموا ما في التوراة وتجاوزوا عن حدود الله وأحكامه وعن تنفيذ عهده الذي عهدهــا اليهم من الأيمان بمحمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلــم واتباعه ونصــره وتوقيره • بل من أحب الهداية وسعى لها هداه الله تعالى ومن أراد الضلالة والبقاء عليها تركهم فيها •

لطيفــة :

في هذه الآية اشارة اخرى وهي ان الله تعالى يقول لأمة محمد صلى الله

تعالى عليه وآلـه وسلم ان اليهود شبهوا بالحمار الذي يحمل فوق ظهره الاسفار لانهم تركو العمل بالكتاب الذي أنزلناه اليهم وهو التوراة وقـد أنزلنا إليكم القرآن فحينما تركتم انتم العمل به وانحرفتم عن تعاليمه فتكون حالكم مثل اليهود كحال الحمار الذي يحمل فوق ظهره الأسفار والكتب في عدم الاستفادة منها •

تمهيـد :

ان اليهود والنّصارى كانوا يمتنعون من الايمان برسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بالرغم من ان التوراة والأنجيل كانا يأمران بذلك لأنهم كانوا يدعون دعاوى كاذبة وباطلة ويعتقدون أنهم اهل الجنة آمنوا بالرسول اولا • وهذه الدعاوى ذكرها الله تعالى في القرآن الكريم فمنها ما قاله تعالى حكاية عنهم في سورة آل عمران « الم تر الى الذين أوتو نصيباً من الكتاب يدعون الى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات وغرهم في دينهـم ما كانـوا يفترون » •

ومنها ما ذكره تعالى في سورة البقرة :

« وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » •

ومنها ما ذكره تعالى في سورة البقرة :

« وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين » •

ومنها ما ذكره تعالى في سورة المائدة :

« وقالت اليهود والنصارى نحـن ابناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكـم بذنوبكم بل انتم بشر ممن خلق » •

فلهذه الدعاوي كلها كانوا لا يعتنقون الاسلام ويخالفون أمر التوراة والأنجيل من الأيمان والدخول في الاســلام ، فكذبهـم الله تعالى في تلك الدعاوي كلها فقال عز من قائل :

« قُلْ يا أَيُّها الذَّينَ هادُوا إنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أولياءُ لله مِنَ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوا المَوْتَ ان كُنْتُمْ صادقِين » .

« قل » يا أيها النبي لليهود وغيرهم ممن يدعون الدعاوى الباطلة . « يا أيها الذين هادوا » اي الذين دخلوا في اليهودية من قبل « ان زعمتم » اي ان اعتقدتم « انكم اولياء لله » اي احباؤه وأبناءه كما تدعون « من دون الناس » دون غيركم من الملل « فتمنوا الموت » لأنفسكم « ان كنتم صادقين » في دعاويكم هذه لان الجنة الذ وأطيب من هذه الدنيا بملايين الدرجات فمن كان من اهل الجنة يجب ان يحب الموت ليدخل فيها الا انهم ليسوا صادقين في هذه الدعاوي فلذلك لا يحبون الموت أبداً كما قال تعالى :

« وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبداً بِما قَدَّمتْ أَيديهِمْ والله عليمٌ بِالظَّالمين »

« ولا يتمنونه » اي الموت « أبدا » الى الابد ويحبون أن لا يموتوا أبداً « بما قدمت أيديهم » اي لا يحبون الموت بسبب ما قدمت أيديهم من الجرائم والآثام « والله عليم بالظالمين » فيما عملوا وسيعاقبهم عقاباً شديداً ثم بعد ما أخبر تعالى بانهم لا يحبون الموت اخبرهم بأن كل ما يعملون فأنما يعملونه خوفاً من الموت وفراراً منه وان ذلك الفرار لا ينجيهم فقال تعالى :

« قُلْ إنَّ المَوْتَ الذَّي تَفِرُّونَ مِنْهُ فإنَّهُ مُلاقيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إلى عالِمِ الغَيْبِ والشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بما كُنْتُمْ تَعملُونْ » .

« قل » لهم يا أيها النبي « ان الموت الذي تفرون منه » بكل الوسائل « فانه ملاقيكم » ولا تنجون منه « ثم » بعد الموت « تردون » ترجعون « الى عالم الغيب » اي العالم بما أخفيتم من الجرائم « والشهادة » وبما عملتموه علناً من المعاصي « فينبئكم » فيجزيكم « بما » بكل ما « كنتم تعملون » في الدنيا ولا يغيب عنه تعالى شيء من تلكم الأعمال .

« يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا اذا نوديَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الجُمُعَةِ فاسْعَوْا إلى ذِكْرِ الله وَذَرُوا البَيْعَ ذَلِكُمْ خَيرٌ لَكُمْ إنْ كُنْتُمْ تَعلَمونَ » .

ذكر الأمام الرازي في وجه مناسبة هذه الآية لما قبلها قولين :

الأول : ان اليهود كانوا يفتخرون بثلاثة اشياء : الشيىء الأول انهم كانوا يقولون نحن أهل التوراة ، فرد الله تعالى عليهم بقوله « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها .... الخ الآية » اي انكم لستم من اهل التوراة لأن التوراة تامركم بالأيمان برسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فلم تمتثلوا ومن لم يمتثل شيئا فليس من أهله ، الشيء الثاني ، انهم كانوا يقولون « نحن ابناء الله واحباؤه » فرد الله تعالى عليهم بقوله : « قل يا أيها الذين هادوا ان زعمتم .... الخ » . الشيء الثالث : انهم كانوا يفتخرون بالسبت وانه يومهم الذي خصهم الله تعالى به فرد تعالى عليهم بتخصيص يوم الجمعة للمسلمين وما فيه من الصلاة والذكر والفضل والثواب أكثر من يوم السبت .

الثاني : هو ان اليهود يفرون من الموت بالعمل الدؤوب للدنيا وبالكسب والتجارة وينسون العمل للآخرة فأمر تعالى المؤمنين ان يتركوا عمل الدنيا حينما حان وقت العمل للآخرة فقال « يا أيها الذين آمنوا اذا نودي للصلاة من يوم الجمعة » اي اذا اذن المؤذن لصلاة الجمعة في يوم الجمعة « فاسعوا » فاذهبوا بجدو واشتياق « الى ذكر الله » اي الى أداء ذكر الله وهو الصلاة والى استماع ذكر الله .هو الخطبة وكلتاهما مقصودتان بالأمر بالذهاب والسعي اليهما « وذروا البيع » في وقت الصلاة لاداءها . « ذلكم » اي ذلك الثواب الذي تحصلونه من الصلاة « خير لكم » مما تحصلونه في هذه المدة من البيع « ان كنتم تعلمون » ثواب الجمعة وصلاتها وانها خير من منفعة البيع . لما تركتموها . بل تركتم كل شيىء لأجلها .

تنبيه :

قوله وذروا البيع المراد به ان كل ما يعوق عن حضور الصلاة يجب ان يترك لغرض اداء الصلاة والحضور عند ذكر الله والموعظة في ذلك اليوم سواء كان بيعاً أو اي عمل آخر .

« فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » ..

« فاذا قضيت الصلاة » اي أديت الصلاة « فانتشــروا في الأرض » للكسب والعمل « وابتغوا » واطلبوا « من فضل الله » اي من رزق الله تعالى « واذكروا الله كثيراً » في وقت تحصيل الرزق واعلموا بأن الله يراقبكم فلا تحصلوه من الحرام أو بالطرق الغير المشروعة « لعلكم تفلحون » لكي تفلحوا في الدنيا بالمعيشة الطيبة وفي القيامة بالثواب الجزيل فان الكسب الحلال عبادة يؤجر المسلم عليها يوم القيامة كما يستفيد منها في الدنيا .

« وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً قُلْ مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ » .

ذكر القرطبي رضي الله تعالى عنــه انه في صحيح مسلم عن جابــر بن عبدالله : ان النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم كان يخطب قائماً يوم الجمعة فجاءت عير من الشام فانفتل الناس اليها حتى لم يبق الا اثنا عشر رجــلاً فأنزلت الآية :

« واذا رأوا تجارة او لهواً انفضوا » اي خرجوا « اليهــا » اي الى التجارة واللهو « وتركوك » الخطاب للرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « قائماً » تخطب على المنبر وفي هذا تأنيب شديد لهؤلاء الذين خرجوا وتركوا الجمعة للتجارة أو اللهو ولكل من يفعل ذلك الى يوم القيامة . « قــل » يا أيها النبي لهؤلاء ولغيرهم « ما » الذي « عنــد الله » من الأجــر والثواب « خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين » . فلا تتركوا عبادته للرزق فانه يرزقكم ورزقه خير من ما ترجون منه الرزق .

سـؤال :

لم قدم التجارة على اللهو في قوله واذا رأوا تجارة أو لهواً واخرها عنه في قوله خير من اللهو ومن التجارة ... الخ ؟

الجواب : ان الترقي في الكلام هنا من الادنى الى الاعلى والانفضاض

للهو من المسجد اليق بالتأنيب من الانفضاض للتجارة فكأنه قال : واذا رأوا نجارة بل لهواً انفضوا • وفي قوله خير من اللهو والتجارة فما هو خــير من التجارة اعلى مما هو خير من اللهو فيكون المعنى وما عند الله خير من اللهو بل ومن التجارة أيضاً فما أبلغ هذا القرآن الكريم •

« خاتمــة فيما ورد »

في بيان فضل صلاة الجمعة ووجوبها :

١ ــ عن ابي هريرة رضي الله تعالى عنا وعنه عن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال : خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أخرج منها ولا تقوم الساعة الا في يــوم الجمعة • قال في التاج رواه الخمسة الا البخاري • وزاد أبو داود : وفيه تيب عليه وفيه مات وفيه تقوم الساعة وما من دابة الا وهي مسيخة يوم الجمعة من حين تصبح حتى تطلع الشمس شفقاً من الساعة الا الجن والأنس •

٢ ــ عن ابي هريرة رضي الله تعالى عنا وعنه أيضاً عن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال : نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد انهــم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم • ثم هذا يومهم الذي فرض الله عليهم فاختلفوا فيه فهدانا الله له فالناس لنا فيه تبــع اليهود غــداً والنصارى بعد غد • قال في التاج رواه الشيخان والنسائي •

٣ ــ ولمسلم : نحن الآخرون الأولون يوم القيامة ونحن أول من يدخل الجنة

٤ ــ وعنه قال سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول : على أعواد منبره لينتهين اقوام عــن ودعهم الجمعات او ليختمن الله عــلى قلوبهم ثم ليكونن من الغافلــين • قال في التاج رواه مسلم والنسائي وأحمد رضي الله تعالى عنهم •

٥ ــ عن ابي الجعد الضمري رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال : من ترك ثلاث جمعات تهاوناً بها طبع الله علــى قلبه • قال في التاج رواه اصحاب السنن والحاكم •

٦ ــ عن ابن عباس رضي الله عنهما تعالى عن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال : من ترك الجمعة من غير ضــرورة كتب منافقاً في كتاب لا يمحي ولا يبدل • قال في التاج رواه الشافعي •

٧ ــ ولابي داود والنسائي من ترك الجمعة بغير عذر فليتصدق بدينار فان لم يجد فبنصف دينار • هذا والمراد بالدينار مثقال ذهب أو قيمته لأن هذا هو الدينار الاسلامي فهو المراد في كل ما ورد •

هذا ما وفقني الله تعالى على ايراده في هذه السورة الكــريمة
ونرجو من الله تعالى القبول والتوفيق وهو الحسب
ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة الا
بالله العلــي العظيــم وصلى
الله على المولى محمد وآله
وصحبه وسلم
اجمعــين
آمين

# سورة المنافقون

« سميت بذلك لما فيها من لوم المنافقين وفضحهم »

« مدنية ، نزلت بعد الحج ، وآياتها احدى عشرة »

بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحِيْمِ

« اِذا جاءَكَ المُنافِقونَ قالُوا نَشْهَدُ اِنَّكَ لَرَسولُ اللهِ والله يَعْلَمُ انّكَ لَرسولُه والله يَشْهدُ اِنَّ المُنافِقِينَ لَكاذِبُونْ »

قال القرطبي ( رحمه الله تعالى ) : روى البخاري عن زيد بن أرقم قال : كنت مع عمي فسمعت عبدالله بن أبيّ بن سلول يقول : لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا . وقال : لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل فذكرت ذلك لعمي فذكر عمي لرسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فأرسل رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم الى عبدالله بن ابي واصحابه فحلفوا اِنهم ما قالوا ، فصدقهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وكذبني فاصابني همّ لم يصبني مثله فجلست في بيتي فأنزل الله عز وجل « اذا جاءك المنافقون .... الى قوله تعالى : ليخرجن الأعز منها الأذل » فأرسل اليَّ رسول الله تعالى عليه وآله وسلم ثم قال ان الله قد صدقك . « اذا جاءك » يا محمد « المنافقون » والمنافق هو الذي يظهر الاسلام ويبطن الكفر « قالوا » لك كلهم « نشهد » اي نقول باللسان ونصدق بالجنان « انك لرسول الله » ونحن مؤمنون حقاً ومسلمون صدقاً « والله يعلم انك لرسوله » سواءهم شهدوا بذلك أو لم يشهدوا وهذه الجملة وقعت اعتراضا بين جملة « نشهد انك لرسول الله » وجملة « والله يشهد ان المنافقين لكاذبون » . وفائدة الأعتراض هي ان لا يتوهم ان قوله « والله يشهد ان

المنافقين لكاذبون » معناه لكاذبون في قولهم انك لرسول الله فمعناه انهم لكاذبون في الشهادة وفي قولهم انا نقر ذلك باللسان ونصدقه بالقلب والجنان حيث كذبوا في ذلك لانهم لم يصدقوا برسالته وانما كانوا يقولون ذلك خوفاً وتستراً من المسلمين . وحيث ان قولهم هذا وحلفهم على انهم لم يقولوا ما ذكره زيد لم يكن الا للتستر والوقاية من بطش المسلمين قال تعالى :

« اِتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سبيلِ الله اِنَّهُمْ ساءَ ما كانوا يَعْمَلُونَ » .

« اتخذوا » اي جعلوا أيمانهم التي يحلفونها بأنهم مسلمون ولم يقولوا ما قال زيد « جنة » اي وقاية لانفسهم « فصدوا » بذلك انفسهم « عن » اتباع « سبيل الله » وهو الأسلام صدقاً واخلاصاً وبالسر والعلانية والقلب واللسان « انهم ساء ما » اي قبح العمل الذي « كانوا يعملون » من الاحلاف الكاذبة والنفاق .

« ذلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطَبعَ الله على قُلوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ » .

« ذلك » اي ان سوء اعمالهم التي اصبحت عادة مستمرة لهم . وحصلت هذه العادة لهم « بأنهم » أي بسبب « انهم آمنوا » حينما رأوا انتصار المسلمين في معركة بدر وقالوا والله هذا هو النبي المنعوت في التوراة لا ترفع له راية « ثم كفروا » حينما لم ينتصر المسلمون في معركة أحد « فطبع الله » بسبب ارتدادهم هذا « على قلوبهم » وختم عليها فلذلك « فهم لا يفقهون » حسن الأمور من قبيحها وسوء الأعمال من حسنها بل يفضلون الاعمال السيئة على الاعمال الصالحة .

« فائدة »

يفهم من قوله تعالى « فطبع الله ... الخ » ان الطبع على القلوب والختم عليها واضلال الله تعالى للناس ليس جبرا منه بل كل ذلك ناشيء عن سوء أعمال العباد وارادتهم السوء والضلال وان ذلك كله من باب ايجاد

المسببات عند وجود الاسباب ولذلك يكون العبد مسؤولا معاتبا على الكفر والضلال •

« وَاذا رَأَيتَهُمْ تُعْجِبُكَ أجسامُهم وانْ يَقولوا تَسْمَعْ لِقولِهِمْ كأَنَّهُم خُشُبٌ مُسَنَّدةٌ يَحسَبونَ كلَّ صيحةٍ عليهِمْ هُمْ العَدوُّ فاحْذَرْهُمْ قاتلَهُمُ الله أَنّى يُؤْفَكونَ » •

كان رؤوس المنافقين يأتون رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ويجلسون في مجلسه وكان لهم اجسام جميلة وفصاحة في اللسان ويتكلمون بما يرضي الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ويحسبهم مخلصين فنبه الله تعالى رسوله على حالهم فقال « واذا رأيتهم تعجبك أجسامهم » لحسن هيئتهم ومنظرهم « وان يقولوا تسمع لقولهم » لفصاحتهم وسلاسة كلامهم « كأنهم خشب مسندة » الى الحائط والعادة ان الخشب الذي لا يصلح للبناء يوضع مسنداً الى الحائط اي انهم لا ينتفع بهم كمثل هذا النوع من الخشب فلا تهتم بهم • « يحسبون كل صيحة عليهم » قد قيل قديماً ان الخائن خائف لانه يخاف ان تنكشف خيانته فيعاقب ، فكان حال المنافقين هكذا وكانوا يخافون انيطلع المؤمنون على خيانتهم فيأمر الرسول صلى تعالى عليه وآله وسلم بقتالهم ولذلك كانوا « يحسبون كل صيحة » يصيحها المسلمون أنها صيحة للهجوم « عليهم » « هم العدو » لك أيها النبي وللمؤمنين ولذلك يخافون منكم « فاحذرهم » ولا تأمن من كيدهم « قاتلهم الله » اي لعنهم الله وهذه كلمة ذم وليست دعاء بالقتل لانه لو كان دعاء أو اخباراً لقتلوا كلهم مع انهم لم يقتلوا حيث ان رئيسهم عبدالله بن ابي بن سلول مات على فراشه ولأن الدعاء بمعناه الحقيقي لا يليق بالله فانه كيف يدعو وهو الفعال لما يريد • « أنّى » اي كيف « يؤفكون » يصرفون عن الحق وهو الاسلام مع وضوحه وأنّه من الله تعالى فيؤمنون كذباً لا صدقاً بل ينافقون الا يعلمون ان أمرهم سيفتضح وسرهم سينكشف وان الخزي والعار سيلحق بهم •

وهنا نعيد ذكر سبب نزول هذه الآيات كما قال القرطبي اخذاً من

البخاري لأن هذه الرواية فيها تفصيل أكثر وتوضيح أفيد . فاليك نص ما في القرطبي :

وسبب نزول هذه الآيات ان النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم غزا بني المصطلق على ماء يقال له المريسيع من ناحية قديد الى الساحل . فازدحم أجير لعمر يقال له جهجاه مع حليف لعبدالله بن أبي يقال له سنان على ماء بالمشلل فصرخ جهجاه بالمهاجرين وصرخ سنان بالانصار فلطم جهجاه سنانا فقال عبدالله بن ابي أو قد فعلوها والله ما مثلنا ومثلهم الا كما قال الأولون سمن كلبك يأكلك اما والله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز يعني « أبيا » « الأذل » يعني محمداً صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ثم قال لقومه كفوا طعامكم عن هذا الرجل ولا تنفقوا على من عنده حتى ينفضوا ويتركوه ، فقال زيد بن أرقم وهو من رهط عبدالله : انت والله الذليل المنتقص في قومك ومحمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم في عز من الرحمن ومودة من المسلمين والله لا أحبك بعد كلامك هذا أبداً فقال عبدالله : اسكت انما كنت ألعب فأخبر زيد النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بقوله ، فأقسم عبدالله ما فعل ولا قال ، فعذره النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم . قال زيد : فوجدت في نفسي ولا مني الناس ، فنزلت هذه الآيات فقيل لعبدالله : قد نزلت فيك آيات شديدة فاذهب الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ليستغفر لك فألوى رأسه فنزلت الآية « واذا قيل لهم تعالوا ... الخ » اخرجه البخاري والترمذي بمعناه . اهـ .

« وَاذا قِيلَ لَهُمْ تَعالوا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ الله لوَّوا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصدّونَ وهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ » .

« واذا قيل لهم » من قبل بعض أهل قرابتهم قد افتضحتم بالنفاق تعالوا الى رسول الله وتوبوا من النفاق واطلبوا من رسول الله ان يستغفر لكم فان فعلتم ذلك « يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم » من هذه النصيحة ومن هذا القول استهزاء « ورأيتهم يصدون » اي يعرضون عن الرسول وعن طلب الاستغفار منه وذلك لأنه « وهم مستكبرون » فمنعهم من ذلك استكبارهم

من الحق • وقيل : قال ابن ابي ــ حينما لوى رأسه ــ أمرتموني ان اؤمن فآمنت وان اعطي زكاة مالي فأعطيت فما بقى الا ان اسجد لمحمد •

« فائدتان »

الأولى :

ان نقل الكلام الصادق من والى الناس للمصلحة لا تعد نميمة بل يعتبر ذلك من باب النصيحة فان زيدا لم يذم على نقله حديث عبدالله بن ابيّ الى الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم •

الثانية :

ان الآيات كلها وردت في عبدالله بن أبي الا ان الضمائر كلها ذكرت بالجمع وذلك لأن جماعته كانوا متفقين معه في كل ما قال •

« سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ » •

ذكر الله تعالى ان المنافقين كانوا يستنكفون ان يأتوا الى الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم لطلب الاستغفار منه ولعلم الله تعالى بأن الرسول كما وصفه كان رؤوفاً رحيماً فكان من المتوقع أن يستغفر لهم الرسول وان لم يأتوا ولم يطلبوا ذلك منه ولذلك اخبر الله تعالى رسوله ان استغفاره لهم لا يفيدهم شيئا ونبّهه على ان لا يستغفر لهم فقال وعز من قائل :

« سواء »مبتدأ و « عليهم » خبره وقوله « استغفرت لهم ام لم تستغفر لهم » جملة مؤولة بالمفرد فاعل لسواء فالتقدير سواء عليهم استغفارك لهم وعدم استغفارك وذلك لأنه « لن يغفر الله لهم » ابداً بسبب خبث طويتهم وقبح اعمالهم واصرارهم على الخروج عن الحق والاسلام و «ان الله لا يهدي» جبراً « القوم الفاسقين » المصرين على الفسق والخروج عن الحق فلا يجبرهم على الأيمان بل يتركهم لاختيارهم وهم لا يختارون الا الكفر والنفاق فلا فائدة في الاستغفار لهم •

ثم اراد تعالى ان يذكر ما يدل على خبث طويتهم وقبح اعمالهم فقال وعز من قائل :

« هُمُ الَّذِينَ قَالُوا لا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلله خَزَائِنُ السَّمواتِ والأَرْضِ ولَكِنَّ المُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ » .

مر سبب نزول الآية سابقاً .

« هم الذين » اي ان المنافقين هم الذين « قالوا » أي بعضهم لبعض « لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا » اي لكي ينفضوا اي يذهبوا من عند الرسول فانهم احاطوا به ويدافعون عنه لما يجدون عنده من مال يصرفه عليهم فاذا لم تنفقوا ولم تعطوا اموالكم للرسول فلا يستطيع الأنفاق عليهم فيتركونه فيبقى ضعيفاً لا يستطيع التسلط عليكم .

زعم المنافقون أنهم لو لم يعطوا الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فانه لا يجد مالاً ينفقه على من حوله فيتركونه فرد الله تعالى على زعمهم هذا بقوله : « ولله خزائن السموات والأرض » فلا يترك رسوله ضعيفاً لا مال له لينفقه على من عنده بل يبسط له الرزق الى ان يستطيع ان ينفق كيف يشاء وانه ليس محتاجا الى مال هؤلاء المنافقين « ولكن المنافقين لا يفقهون » قدر ومنزلة الرسول عند الله تعالى وانه لا يحوجه الى المنافقين ولا يدعه ضعيف الحال لامال عنده وقد صدق الله وعده فبسط للرسول رزقه فكان ينفق ولا يخاف الفقر ويعطي ولا يخشى نفاد المال كما قال الشاعر في حقه :

ما قال لا قط الا في تشهده

لولا التشهد لا عنده نعم

« يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إلى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلله العِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ المُنَافِقِينَ لايَعْلَمُونَ » .

« يقولون » اي المنافقون والله « لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز » ارادوا أنفسهم فانهم زعموا انهم ذو عزة وقوة أكثر من المؤمنين « منها » اي من المدينة « الاذل » ارادوا به الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم واصحابه فرد الله تعالى على زعمهم هذا وقالّ «ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين»

اي وهم الأذل « ولكن المنافقين لا يعلمون » بعزة المؤمنين وذلة انفسهم •

قال تعالى في الآية السابقة « ولكن المنافقين لا يفقهون » وقال هنا « ولكن المنافقين لا يعلمون » لأن الأول كان من الأمور الدينية من ان كل ما في السموات والأرض لله تعالى • وهنا في الأمور الدنيوية وهي القوة والعزة والمنعة • والفقه يستعمل في المعنويات والعلم يستعمل في الماديات •

ويروى ان عبدالله بن عبدالله بن ابي بن سلول حينما وصلوا حدود المدينة قال لأبيه : والذي لا اله الا هو لا تدخل المدينة حتى تقول ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم هو الأعز وانا الأذل • فقال عبدالله بن ابي ذلك • ثم تركه ابنه ان يدخل المدينة • وهكذا الأيمان والحب للاسلام يفدي المسلم في سبيله بالوالد والولد وكل ما يعز عليه وهكذا يجب ان يكون المسلم والا فليس صادقا في الاسلام •

سبق ان ذكر الله تعالى المنافقين وحالهم وانهم اتخذوا طريق النفاق حفاظاً على الأموال والأولاد وانه صرفهم حب الدنيا عن الدخول في الاسلام صدقاً • واخلاصاً • فبعد ذلك نبه تعالى المؤمنين وحذرهم عن ان يتخلقوا بأخلاق المنافقين فينشغلوا بسبب الأموال والأولاد عن اداء ما وجب عليهم والالتزام بالأسلام روحاً ومعنى وكأن الله تعالى بين في طيّ ذلك ان المؤمن المنافق هو الذي يشغله الأموال والأولاد عن الدين ويؤثر ماله وولده على الالتزام بالحق واداء ما وجب عليه في الدين وان المؤمن الصادق هو من يضحي بماله وولده في سبيل سلامة دينه واستقامة طريقته فقال وعز من قائل :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ » •

« يا أيها الذين آمنوا » ان صدقتم في أيمانكم وانكم مسلمون حقاً وصدقاً واخلاصاً « لا تلهكم » اي لا تشغلكم « أموالكم » كلها « ولا اولادكم » جميعاً « عن ذكر الله » اي عن دينه فتخالفوا احكامه أو أوامره أو ترتكبوا مناهيه بسبب المال أو الولد والحفاظ عليهما أو مداراتهما • « ومن يفعل ذلك » فيؤثر ماله أو أرضاء ولده أو حفظه على اتباع امر الله تعالى

واحكامه « فأولئك » الفاعلون لذلك « هم الخاسرون » لانهم باعوا الحياة الباقية وهي حياة الآخرة الأبدية في الجنة بالحياة الفانية الزائلة وهي منافع الدنيا وزينتها ولا خسارة أكبر من هذه الخسارة •

ثم ذكر تعالى انه يجب ان يكون من صفة المؤمن الصادق أن يضحي بماله وينفقه في سبيل اداء أمر الله تعالى وابتغاء مرضاته قبل أن تفوته الفرصة فيموت ويتندم على ما قصر وفرط في جنب الله بسبب البخل وحب المال وعدم انفاقه فيما أمر تعالى به فقال وعز من قائل :

« وَأَنْفِقُوا مِنْ ما رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ المَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ » •

« وانفقوا » اي يا ايها الذين آمنوا اصرفوا « من ما رزقناكم » الى من ما سلمناه أليكم من القوة والمال • وفي قوله مما الخ اشارة أي ان كل مالديكم هو من الله تعالى ومن ماله سلمه اليكم فحينما يأمركم بصرفه فانما مثله كمثل الموكل يأمر وكيله على ماله بأن يصرفه في وجهه فحينماخالف يستحق العزل عن الوكالة وسلب ما هو عنده منه أو معاقبته بما يستحقه فانفقوا ايها المؤمنون « من قبل » ان تفوتكم الفرصة بأن « يأتي احدكم الموت » فيتندم ويتحسر على عدم الأمتثال في انفاق ماله « فيقول » اظهاراً لحسرته وندامته « رب لولا أخرتني الى أجل قريب » اي ياليت أنه أخرتني وأجلت موتي « الى اجل قريب » اي الى مدة قليلة « فاصدق » لكي انفق مالي في سبيلك « واكن من الصالحين » بسبب صرف المال في سبيل الله تعالى وهذا التمني يكون قبيل الموت وحينما يتيقن المرأ من الموت ويتذكر تفريطه في جنب الله تعالى فيتمنى هذا التمني ويطلب هذا الطلب من الله تعالى ، الا ان هذا التمني لا يفيده لأن الأجل اذا جاء لا يؤخر كما قال تعالى :

« وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْساً إِذا جاءَ أَجَلُها واللهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ » •

« وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللهُ »أبداً « نفساً » اي قبض نفس « اذا جاء أجلها » فيقبضها دون تأخير ولا يفيد كل طلب وتمن • « والله خبير » اي مطلع وعالم

« بما » بكل ما « تعملون » مدة حياتكم قبل الموت ويحاسبكم على أعمالكم بها ويجزيكم على وفقها ولا يخفى عليه شيىء من ذلك كبيراً وصغيراً كثيرا أو قليلاً وهو على كل شيء قدير ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله اجمعين •

## « سورة التغابن »

« سميت بذلك لما فيها من قوله تعالى ذلك يوم التغابن »
« مدنية ، نزلت بعد سورة التحريم ، آياتها ثماني عشرة »

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

« يُسَبِّحُ للهِ ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ » .

« تمهيد »

ان في هذه السورة تهديداً للذين كفروا بالرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بأن الله تعالى يعذبهم في الدنيا كما عذب الذين من قبلهم ان لم يؤمنوا وتهديداً بالعذاب يوم يحييهم ويبعثهم يوم القيامة فلذلك قال « يسبح لله » أي يعترف ويدل كل « ما في السموات وما في الأرض » على ان الله تعالى تنزه عن أن يعجز من أن يعذب الكافرين في الدنيا وان يبعثهم ويعذبهم بعد البعث في الآخرة أيضاً فان الذي يقدر على خلق السماوات والأرض وما فيهما وعلى ابداع هذا النظام البديع لقادر على ان يعذب الكافرين في الدنيا بما يشاء وأن يعذبهم يوم القيامة فيعذبهم هناك أيضاً . ثم كأن قائلاً يقول فلماذا يعذب الله تعالى الكافرين وان كفرهم لا يضره شيئاً فانه غني عن العالمين فقال تعالى « له الملك » أي له التصرف المطلق فيتصرف في ملكه كيف يشاء فيعذب من يشاء ويرحم من يشاء . ثم كأن قائلاً آخر يقول : لما كان لله التصرف المطلق فلماذا يعذب من يشاء وهو غني عن عذابهم ؟ فقال تعالى « وله الحمد » اي وله الكمال المطلق فكل ما يفعله من فعل فهو جميل وأجمل من عكسه أو خلافه فانه لا يعمل عملاً إلا وفيه المصلحة التي تجعل ذلك العمل جميلاً بل أجمل من غيره . ثم كأن قائلاً يقول : الا يستطيع الله تعالى

ان ينعم على الكافر والفاسق كما ينعم على المؤمن والصالح والكل عباده ومن خلقه ؟ . فقال تعالى « وهو على كل شيىء » من ثواب المطيع وعذابه وعقاب العاصي والأنعام عليه « قدير » لا يمنعــه من ذلك شيىء إلا ان حكمتــه اقتضت ثواب المطيع وعذاب العاصي وان كان لا تنفعه طاعة المطيع ولا تضره معصية العاصي شيئاً ثم ذكر تعالى بعض صفاته التي توجب وجــوب طاعته وعبادته وتكون سبباً لعذاب الكافر وثواب المؤمن فان من له هذه الصفات يجب عبادته ويستحق من ينحرف عن طاعته العذاب في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما جميعاً فقال تعالى :

« هُوَ الذَّي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كافِرٌ وَمِنْكُـــمْ مُؤْمِنْ واللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصيرٌ » .

« هو الذي » ان الله تعالى « هو الذي خلقكم » أوجدكم من العدم لا غيره وعقب خلقه الذي يوجب الأيمان به والخضوع لدينه « فمنكم كافر » اختار الكفر وسلك سبيله . « ومنكم مؤمن » آمن بالله واختار عبادته وطاعته على عبادة وطاعة غيره ولا يخفى على الله تعالى شيىء من ذلك لانــه « والله بما تعملون » من الكفر وما يتبعه من الأعمال السيئة والجرائم ومن الأيمان وما يورثه من صالح الأعمال ومحامد الأخلاق « بصير » لا يخفى عليه شيىء فيعاقب الكافر على كفره ونتائجه ويثيب المؤمن على الأيمان وثمراته .

« خَلَقَ السَّماواتِ وَالأَرْض بالحَقِّ وصَوَّرَكُـــمْ فَأحْسَنَ صُوَرَكُمْ وإليْهِ المَصيرُ » .

« خلق » اي ان الله هو الذي « خلق السموات والأرض » لا غــيره وليس لشيىء في ذلك الخلق اي نصيب وخلق كل ذلك « بالحق » اي ملتبساً ذلك الخلق بالحكمة والأتقان والعدل فلا يعدل شيىء منه عما سخر له وكل يعمل ما وضع له ولا يطغي شيىء على آخر فكل يسير ويعمل بميزان واحد واتزان قويم وتنسيق بديع « وصوركم » اي وخلقكم « فأحسن صوركم » وجعلها أحسن من كل المخلوقين ووهبكم صفات تميزتــم بها من الجمادات والنباتات وسائر الحيوانات وتفوقتم بها على غيركم من المخلوقات « واليه »

اي الى الله تعالى لا الى غيره « المصير » أي مصيركم ورجوعكم في جميع الأمور فأنه هو الذي يقدرها لكم أو معناه واليه رجوعكم يوم القيامة فيحاسبكم على مدى شكركم لهذه النعم التي انعم بها عليكم . وهذا المعنى أنسب بقوله تعالى :

« يَعْلَمُ ما في السمَاوات والأرْض ويَعْلَمُ ما تُسرّون وما تُعْلِنُونَ والله عَليمٌ بِذاتِ الصّدور » .

« يعلم » اي ان الله تعالى يعلم كل « ما في السموات والارض » ولا يخفى عليه شيء من ذلك « ويعلم ما تسرون » اي تخفونه من اعمالكم وأقوالكم فتعملونه سراً أو تقولونه خفية « وما تعلنون » اي ويعلم ما تظهرون من أعمالكم وأقوالكم « والله عليم » علماً ثابتا وراسخا لا يزول ولا يفنى « بذات الصدور » ذات الشيء اي حقيقته فالمعنى عليم بحقيقة الصدور والمراد بالصدور القلوب والقلوب هي الادراكات والاعتقادات والنيات فالمعنى ان الله يعلم عقائدكم المستورة في الصدور ونياتكم المكنوزة فيها وحاصل معنى الآية ان اعمالكم الظاهرة والخفية وأقوالكم السرية والعلنيه وعقائدكم ونواياكم كلها معلومة لله تعالى لا يخفى عليه شيء منها ويحاسبكم عليها ويجزيكم على وفقها فهذه الصفات العظيمة وهذه النعم الجليلة من خلق الله تعالى لكم وخلقه السماوات والأرض وتصويره لكم أحسن الصور وعلمه بما في السموات والارض وبما تعملون سراً وتقولون خفية وبما تسترونه في صدوركم من العقائد والنيات تدعوكم هذه الصفات الى أن تؤمنوا بالله ولا تكفروا وتوحدوه ولا تشركوا به وتطيعوه ولا تعصوه في شيء ثم أشار تعالى الى ان الأنسان ان لم يعتبر بهذه الصفات فلم يخضع لله ولم يعمل بما أمر به فليعتبر بالأمم الماضية والذين لا يخفى على الأنسان أخبارهم واحوالهم من انهم تركوا الأنقياد لشريعة الله وكذبوا برسله وما أوصاه اليهم ، فأنزل الله تعالى عليهم العذاب واهلكهم في الدنيا ولعذاب الآخرة أشد وابقى فليعتبر الأنسان بتلك الأمم قبل ان يصيبه ما أصابهم وان يهلك كما أهلكو واستحقوا العذاب في الدارين فقال تعالى :

« أَلَمْ يأتِكُمْ نَبَؤُ الذِينَ كَفروا مِنْ قَبْلُ فَذاقوا وَبالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أليمٌ » •

« الم يأتكم » يا أهل مكة ويا كل من كفر برسول الله محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « نبؤ » اي خبر الأقوام « الذين كفروا » بالله وبرسله « من قبل » اي من قبلكم وبسبب كفرهم هذا « فذاقوا وبال » اي جزاء وعقاب « أمرهم » في الدنيا بأن أهلكوا بالطوفان كقوم نوح عليه السلام أو الغرق كفرعون وآله أو الصاعقة أو بالصيحة أو غير ذلك مما سلط الله تعالى عليهم من العذاب « ولهم » في الآخرة « عذاب اليم » اي موجع • والاستفهام هنا للانكار وانكار النفي اثبات فالمعنى قد أتاكم اخبارهم هذه الامم فاعتبروا بهم قبل ان ينزل بكم ما نزل بهم من العذاب والدمار •

« ذلِكَ بأَنَّهُ كانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالبَيِّناتِ فَقالُوا أبَشَرٌ يَهْدُونَنا فكفرُوا وَتوَلَّوا واسْتغنى الله والله غنيٌ حميدٌ »

« ذلك » ذلك العذاب الذي ذاقه الأقوام الذين كفروا من قبل كان « بأنه » بسبب أنه « كانت تأتيهم رسلهم » من الله تعالى « بالبينات » اي بالدلائل الواضحة الدالة على انهم رسل من الله تعالى فلم يؤمنوا بهم بل كفروا « فقالوا أبشر يهدوننا » يرشدوننا الى الله وشريعته ويكون رسولاً من عنده والاستفهام كان على سبيل الأنكار فأرادوا انه لا يكون البشر رسولاً من الله تعالى بل ينبغي أن يأتي الملائكة بالرسالة للناس وذكر « يهدوننا » وإن كان لفظ بشراً مفرداً إلا انه جنس يشمل الكثير والقليل كالقوم ولسبب هذه المكيدة التي كادها الشيطان وأدخل في قلوبهم لم يؤمنوا « فكفروا » بالرسل « وتولوا » عن اتباعهم « واستغنى الله » اي انهم لما كفروا وتولوا باختيارهم « استغنى الله » عنهم فلم يهدهم جبراً والزاماً « والله غني » عن أيمان الناس فجعل الأختيار بيدهم فمن آمن فلنفسه ومن كفر فعليها وقد جعل الله الأختيار بيد العباد ولم يجبرهم على الخير والأيمان لانه « حميد » محمود وجميل افعاله كلها فانه لا يعمل عملاً إلا لحكمة كبيرة فجعل الأختيار بيد العباد للحكمة التي هو ارادها ويعلمها •

« تنبيه »

ان استنكاف الأقوام من اتباع الرسل لأنهم بشر مثلهم دسيسة كبيرة وقديمة أضل بها الشيطان كثيراً من الناس من الأمم الماضية وأخبر القرآن عن ذلك بآيات :

١ ــ قال تعالى عن قوم نوح عليه السلام في سورة المؤمنون : ( الآية ٢٤ ــ ٢٥ ) « ولقد أرسلنا نوحاً الى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره أفلا تتقون فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا الا بشر مثلكم يريد ان يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين » .

٢ ــ قال تعالى في سورة المؤمنون فيمن جاء بعد نوح ( الآية ٣١ــ٣٥ ) « ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين فأرسلنا فيهم رسولاً منهم ان اعبدوا الله مالكم من اله غيره افلا تتقون وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في ما هم في الحياة الدنيا ما هذا الا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون ويشرب مما تشربون ولئن أطعتم بشراً مثلكم انكم اذاً لخاسرون » .

٣ ــ قال تعالى عن قوم صالح عليه السلام في سورة الشعراء ( الآية ١٥٤ ــ ١٥٥ ) « قالوا ما أنت الا بشر مثلنا فأت بآية ان كنت من الصادقين » .

٤ ــ قال تعالى عن قوم شعيب عليه السلام في سورة الشعراء ( الآية ١٨٥ ــ ١٨٧ ) « قالوا انما أنت من المسحرين وما أنت الا بشر مثلنا وان نظنك من الكاذبين » .

٥ ــ قال تعالى في قوم هود عليه السلام في سورة القمر ( الآية ٢٤ ــ ٢٧ ) « كذبت ثمود بالنذر فقالوا أ بشر نتبعه انا اذا لفي ضلال وسعر أألقي عليه الذكر من بيننا بل هو كذاب أشر » .

الى غير ذلك من الآيات من هذا القبيل وهكذا كان الأقوام السابقون يستبعدون ان يكون الرسل من البشر فلم يؤمنوا برسلهم وكذبوهم وأستنكفوا من اتباعهم ولا يخفى ان الكفر ملة واحدة ومكيدة الشيطان ووسوسته تأتي على منوال واحد وتنسيق خبيث فلذلك حذا كفار مكة

وغيرهم ممن لم يؤمنوا برسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم حـذوا الأقوام السابقين وعارضوا الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ولم يؤمنوا به بحجة أنه بشر واستبعدوا أن يأتي الرسل من البشر وقد أخبر القرآن عن ذلك في آيات أخرى ورد على قولهم :

١ ــ قال تعالى في سورة الأنعام ( الآية ٩١ )

« وما قدروا الله حق قدره اِذا قالوا ما انزل الله على بشر من شيىء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهـدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً » •

٢ ــ قال تعالى في سورة الأنبياء ( الآية ٣ ) :ــ

« لاهية قلوبهم واسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا الا بشر مثلكم أفتأتون وانتم تبصرون » •

وتوجد آيات كثيرة من هذا القبيل واقتصرنا على ما كتبنا خشية الأطالة فرد الله تعالى على هذه الفكرة الباطلة والدسيسة الشيطانية التي اضلت كثيراً من الناس رد تعالى عليها في القرآن الكريم فقال في سورة الأسـراء ( الآية ٩٣ ــ ٩٤ ) :ــ

« وما منع الناس أن يؤمنوا اِذا جاءهم الهدى الا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولاً قل لو كان في الارض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً » •

افاد تعالى في هذه الآية ان الرسول يكون من جنس المرسل اليهم فيرسل الملك الى الملائكة والى البشر يرسل البشر لامكان التلاقي والتفاهم بـين المرسل والمرسل اليهم فانه لو أرسل الملك الى البشر على صورة الملائكـة كأجسام لطيفة لا ترى لما أمكن التفاهم بينهم ولو جاءهم على صورة الأنسان والبشر لالتبس عليهم فطعنوا فيهم كما يطعنون في من كان بشراً كما قال تعالى في سورة الأنعام ( الآية ٩ ــ ١٠ ) :

« وقالوا لَوْلا أُنْزِلَ عَليهِ مَلَكٌ وَلو أَنْزَلْنا مَلَكاً لقُضي الأَمْرُ ثمَّ لا يُنْظَرُونْ وَلَوْ جَعَلْناهُ ملكاً لجعلْناهُ رَجُلاً وللبْسنا

عَلَيهِم ما يَلْبَسُونَ » هذا ثم بعد ان ذكر الله تعالى ان منكري الاسلام ورسوله لم يعتبروا بما جرى على الأمم الماضية من العذاب والدمار في الدنيا بسبب تكذيبهم للرسل فكذبوا الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وكفروا . اراد تعالى ان يذكر انهم ما خافوا عذاب الآخرة أيضاً لانهم لم يؤمنوا بالحياة بعد الموت فقال وعز من قائل :

« زَعَمَ الذَّيْنَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بلى وربِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لتنبئونَّ بما عَمِلْتُمْ وَذلِكَ على الله يسيرٌ » .

« زعم » يقال زعم للاعتقاد الباطل فالمعنى اعتقد اعتقاداً باطلاً « الذين كفروا » بالاسلام « أن » مخففة من الثقيلة اسمه ضمير الشأن المقدر وتقديره « انه » اي ان الشأن انهم « لن يبعثوا » لن يحيوا بعد الموت فلا حياة ولا حساب بعد الوفاة « قل » ايها المسلم « بلى وربي لتبعثن » لتحيين « ثم لتنبؤن » اي لتخبرن « بما عملتم » في الدنيا من خير أو شر وهذا وعد ووعيد لأن المراد بالأخبار بالعمل الجزاء عليه والجزاء بعد الأحياء « على الله يسير » سهل لا صعوبة فيه فان من قدر على الأنشاء فعلى الأعادة قادر بالأولى واذا كان الأمر كذلك :

« فَآمِنُوا بالله وَرَسُولِهِ والنُّور الذَّي أنْزَلْنا والله بِما تَعْمَلُونَ خَبْيرٌ » .

« فآمنوا » اي فاذا كان البعث والحساب موجوداً « فآمنوا بالله ورسوله » محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم . « والنور الذي أنزلنا » على محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وهو دين الاسلام . سمي نوراً لأنه ينور طريق الآخرة كما ينور النور طريق الدنيا « والله بما تعملون » من اتباع الأسلام والانحراف عنه « خبير » لا يخفى عليه شيىء من ذلك فيثيبكم على اتباعه ويعاقبكم على الانحراف عنه .

« يَومَ يَجْمعُكُمْ ليوْم الجَمعِ ذلكَ يَومُ التَّغابُنَ وَمَنْ يُؤمِنْ بالله وَيَعْمَلْ صالِحاً يكفِّرْ عنهُ سيئاته وَيُدخِلْهُ

جَنّاتٍ تجْري مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ خَالِدينَ فيها أَبَداً ذلِكَ الفَوزُ العَظيْم » .

« يوم يجمعكم » يوم ظرف والعامل فيه قيل قوله لتنبؤن وقيل اذكر وعندي ان العامل فيه هو يجزيكم ، المستفاد من قوله بما يعملون خبير لأن كل ما قال تعالى في القرآن بما تعملون خبير أو بصير وعليم فهو وعد للمؤمنين بالجزاء الحسن وهو الثواب ووعيد للفاسقين بالعقاب فيكون المعنى والله بما تعملون خبير فيجزيكم حسب أعمالكم « يوم يجمعكم ليوم الجمع » وهو يوم القيامة سمي يوم الجمع لأنه : يجمع الناس فيه للحساب والجزاء . « ذلك » اي ذلك اليوم وهو يوم القيامة « يوم التغابن » اي يوم الغبن والخسارة وأخذ المظلوم حقه من الظالم « ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً » والعمل الصالح هو كل ما كان مشروعاً في الشرع ويكون موافقاً للشرع « يكفر » الله « عنه سيئاته ويدخله » الله تعالى « جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً » لا يخرجون منها « ذلك » التكفير من السيئات وادخاله الجنات « الفوز » هو نيل المقصود « العظيم » وأي فوز أعظم من الحياة الأبدية السعيدة وفي مقعد صدق عند مليك مقتدر رزقنا الله تعالى هذا الفوز برحمته الواسعة آمين .

سؤال :ـ

ان قوله ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يفيد ان من آمن بالله وعمل صالحاً فهو ن أهل الجنة وان لم يكن مسلماً ومؤمناً بمحمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فهل هذا صحيح أم لا ؟ .

الجواب :ـ

في تفسيرنا لقوله تعالى « انه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين » في سورة الحاقة تجد جواباً شافياً وتفصيلا وافياً باذن الله تعالى كما ويخرج غير المسلم من هذا الفوز قوله تعالى « والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك اصحاب النار هم فيها خالدون » لأن معنى « والذين كفروا » اي كفروا بمحمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ومعنى « وكذبوا

بآياتنا » انهم لم يؤمنوا بما في القرآن من الآيات والأحكام التي انزلها الله تعالى ليكون دستوراً للعمل والحياة وفقها « أولئك » الذين كفروا ولم يتبعوا احكام الأسلام ولم يعملوا بها «أصحاب النار» كلهم وداخلون فيها « خالدين فيها » ولا يخرجون منها « وبئس المصير » مصيرهم هذا هو جهنم •

« ما اصابَ مِنْ مُصيبَةٍ إلاّ باذنِ الله وَمَنْ يُؤْمِنْ بالله يَهْدِ قَلْبَهُ وَالله بكلّ شيىء عَليمْ » •

تمهيـد :

لقد ذكر الله تعالى ان الكافرين لم يعتبروا بما جرى على الأمم الماضية بسبب الكفر وانهم لم يؤمنوا بالبعث فلم يخافوا منه وان الذي يؤمن ويعمل الصالحات فله الجنة والفوز العظيم ومن كفر وكذب بآيات الله فمأواه جهنم وبئس المصير فيتوهم المرأ من هذه الأمور ان الأنسان له التصـرف المطلق فيعمل ما يعمل من الاعتبار وعدم الاعتبار وخوف الآخـرة وعدم الخوف والأيمان والعمل الصالح والكفر والتكذيب بآيات الله تعالى فدفع الله تعالى هذا التوهم فقال وعز من قائل :

« ما أصاب » اي ما اصاب أحداً « من مصيبة » من خصلة وعقيـدة وعمل من خير أو شر • « إلا بأذن الله » اي إلا بقضاء الله وقدره وخلقـه وتقديره فالأنسان ليس له التصرف في اي شيىء إلا باذن الله تعالى وارادته • ومن هنا ينشأ سؤال وهو انه :ـ اذا كان كل شيىء من تصرفات الأنسـان باذن الله وأرادته وقضائه وخلقه وتقديره فلماذا يثاب الصالح ويعاقب الفاسق ؟ فاشار الله تعالى الى جواب هذا السؤال فقال : « ومن يؤمن بالله » والمعنى ان كل شيء بخلقه الله تعالى وارادته الا انه جعل الاختيار بيد العبـد فاذا اختار شيئاً وصمم عليه خلقه الله تعالى له سواء كان ذلك المراد خيراً أو شراً • فمن اراد الكفر خلقه الله تعالى له « ومن يؤمن بالله » ومن اختار الأيمان بالله وسعى له سعيه « يهد » يهدي الله « قلبه » ويشرحه ويقذف فيه الأيمان وعلى طريق العكس من يختار الكفر وسعى له سعيه واطمأن به يضل الله قلبه ويطرح فيه الكفر فعلى اختيار العبد للايمان يثاب المؤمن وعلى اختياره الكفر يعاقب

الكافر . « والله بكل شيء عليم » فيعلم مرادات العباد ونواياهم واختياراتهم فيخلق لهم ما ارادوا وما اختاروا وما نووا كما هو الحال في المحسوسات فمن سلك سبيل البصرة يوصله الله تعالى الى البصرة ومن سلك سبيل الموصل يوصله الى الموصل . ولا يوصل من سلك سبيل البصرة الى الموصل أو بالعكس فكذلك من اختار سلوك سبيل الخير يسر له ومن سلك سبيل الشر فتحه له وذلك من باب خلق المسببات بعد الأسباب وصرح تعالى بذلك بقوله في سورة آل عمران « ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزي الشاكرين » ولا يجبر الله تعالى عبداً على خير أو شر إلا نادراً . هذا وحيث ان العبد بيده الأختيار أمره تعالى بقوله :

« وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ » .

« وأطيعوا الله » بامتثال أوامره والأجتناب عما نهى عنه وحيث لا يمكن معرفة أوامر الله تعالى لتمتثل ولا نواهيه لتتجنب الا عن طريق الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال تعالى « واطيعوا الرّسول » فان اطاعته اطاعة الله تعالى حيث انه لا يأمر إلا بما أمر به الله ولا ينهى الا عما نهى الله تعالى عنه فانه المبلغ لحكم الله « ولا ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى » « فأن توليتم » اي فأن اعرضتم عن الاطاعة واخترتم الضلال « فانما على رسولنا البلاغ المبين » اي البلاغ الواضح وليس عليه أجباركم على الخير والطاعة وليس من وظيفته ذلك فهو يبلغ عن الله وانت بيدك امرك ، فان عملت وفق التبليغ فلك الأجر والثواب وان خالفت فعليك الوزر والعقاب « وما ظلمهم لله ولكن أنفسهم يظلمون . ثم بعد ان أمر الله تعالى باطاعته وأوجبها على عباده علل وجوب طاعته فقال :

« اللهُ لا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ » .

« الله لا اله » لا موجد ولا مؤثر في اي شيء ولا حاكم تكويناً ولا تكليفاً « إلا هو » فلذلك وجب اطاعته وحده ولا يجوز أطاعة غيره إلا ضمن ما قدره هو كما قال أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه :ــ اطيعوني ما اطعت الله فيكم وإلا فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه :ـ اذا رأيتم في اعوجاجاً فقوموني • فالله تعالى هو المؤثر وهو المشرع ( وعلى الله ) الموصوف بهذه الوحدة في الخلق والأيجاد والتأثير والتشريع لا على غيره •

« فليتوكل المؤمنون » به في أمورهم وشئونهم الدينية والدنيوية خص المؤمنين بالأمر بالتوكل عليه لأن الكافر به لا يعرفه ليتوكل عليه • ثم ان كثيراً من الناس ينحرفون عن اطاعة الله تعالى لأجل أزواجهم أو أولادهم وذلك لتحصيل الرزق لهم بطريق غير مشروع أو انه يرتكب منهياً عنه لأجلهم وللحفاظ عليهم أو أنهم ينهونه عن أطاعة الله تعالى فحذر تعالى المؤمنين عن ذلك كله فقال وعز من قائل :

« يا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا اِنَّ مِنْ أزواجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ فاحذَرُوهُمْ واِنْ تعفُوا وَتَصْفَحوا وَتَغفِرُوا فأِنَّ الله غَفُورٌ رَحيمٌ » •

« يا أيها الذين آمنوا ان من ازواجكم واولادكم عدواً لكم » وهم الذين يأمرونكم بالمعاصي أو يسوقونكم الى الانحراف عن منهج الله تعالى أو يتسببون في أن ترتكبوا المعاصي ترحماً أو حفاظاً عليهم او اعالة لهم فان كل من يتسبب في ضررك فهو عدو لك واي ضرر أضر من الضرر في الدين • « فاحذروهم » من ان يضروكم وحينما نزلت هذه الآية أراد بعض المؤمنين ان يعاقبوا اولادهم ويؤذوهم فقال تعالى « وان تعفوا » عنهم « وتصفحوا » اي وتعرضوا عن ايذائهم « وتغفروا » لهم فذلك حسن « فان الله غفور رحيم » ويريد أن يغفر العباد بعضهم لبعض فليس المطلوب منكم ان تؤذوهم انما المراد منكم ان تحذروهم من أن تقعوا في الباطل بسببهم •

« اِنما أموالُكُمْ وَأَولادُكُمْ فِتْنَةٌ والله عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ » •

« اِنما أموالكم وأولادكم فتنة » امتحان لكم من الله تعالى فوهبكم الله الولد والمال لينظر هل تعصون ربكم بسبب المال والولد ام لا وهل

تصرفون أموالكم وأولادكم في الخير أم في الشر « والله عنده أجر عظيم » لمن تمسك بدينه ولم ينحرف عنه بسبب الأموال والأولاد بل واستغل ماله وأولاده في اطاعة الله تعالى وساقها الى الخير وجنبها عن كل ما فيه الشر والمعصية .

« فاتَّقُوا الله ما اسْتَطَعْتُم واسْمَعُوا وأطيعُوا وأنْفِقوا خَيْراً لأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فاوُلئِكَ هُمُ المُفلِحُونَ » .

« فاتقوا الله » اي اجتنبوا معاصي الله تعالى بسبب اموالكم أو أولادكم أو شهواتكم. « ما استطعتم » بقدر ما في وسعكم أي بكل جهدكم « واسمعوا » اي استجيبوا داعي الله « وأطيعوا » أمر الله « وانفقوا » اموالكم فيما أمر به أو أباح « خيراً » اي ان تنفقوا يكن « خيراً لانفسكم » لانكم تثابون على ذلك مقابل الواحد عشرة الى سبعمائة أو أكثر والله واسع عليم .

« ومن يوق » اي ومن حفظه الله من « شح نفسه » بخل نفسه « فاولئك هم المفلحون » اي الفائزون بما يرغبون فيه من النعم والعطايا من الله تعالى . ثم بين تعالى ان الانفاق في سبيل الخير هو قرض مع الله تعالى وبين حسن عاقبة ذلك القرض فقال تعالى :

« اِنْ تُقْرِضُوا الله قَرْضاً حَسَناً يُضاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ والله شَكُورٌ حَلِيمٌ » .

« ان تقرضوا الله » بالأنفاق في سبيله « يضاعفه لكم » اي يجزيكم عليه اضعافاً « ويغفر لكم » ذنوبكم « والله شكور » كثير الثواب على الطاعات « حليم » في العقاب .

« عالِمُ الغيْبِ والشَّهادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

« عالم الغيب » اي يعلم الله تعالى كل ما غاب واختفى من أعمالكم وكل ما ظهر وانكشف من افعالكم « العزيز » الغالب والمنفذ لأرادته في ثواب المطيع وعقاب العصاة . « الحكيم » ولا يعمل شيئاً من ذلك الا

لحكمة بليغة هو يعلمها ونحن عنها غافلون وستنكشف لنا الحقيقة يــوم الآخرة .

هذا ما وفقنا الله تعالى على ابداءه نرجوا الله تعالى
القبول وحسن الختام والحمد لله رب العالمين
والصلاة والسلام على خير خلقــه
محمد وآله وصحبـــه
اجمعين آمــين

## « سورة الطلاق »

### سميت بذلك لما فيها من كيفية ايقاع ( الطلاق )
### « مدنيــة ، نزلت بعد سورة الانسان وآياتها اثنتا عشــرة »

بســم الله الرّحمن الرحيـــم

« يا أيّها النّبي إذا طلّقتم النّساء فطلّقوهنّ لعدّتهنّ وأحصوا العدّة واتّقوا الله ربّكم لا تخرجوهنّ من بيوتهنّ ولا يخرجن إلاّ أن يأتين بفاحشة مبيّنة وتلك حدود الله ومن يتعدّ حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدري لعلّ الله يحدث بعد ذلك أمراً » .

« يا أيها النبي » نادى الله تعالى نبيه وحده لانه المبلـغ لاحكام الله تعالى وخاطب في « اذا طلقتم » الجمع لأن الحكم عام للجميـع من النبي وأمته . « اذا طلقتم » اي اذا اردتم ان تطلقوا « النساء » اي نساءكـــم « فطلقوهن لعدتهن » اي طلقوهن لوقت عدتهن اي في الوقت الذي يبدأن ويدخلن في العدة ولا تطلقوهن في وقت لا يدخلن في العدة ولا يحسب لهن ذلك الوقت من العدة وبسبب ذلك تتأخر عدتهن فيكون ذلك ظلماً منكـم لهن . وذلك بأن يطلق الرجل زوجه في الحيض او النفاس أو في طهر جامعها فيه ، فان مدة الحيض والنفاس والطهر الذي جامعها فيه لا يحسب من العدة بل تبتدىء العدة بعد الحيض والنفاس وبعد ذلك الطهر فتتأخر عدتها فتتظلم المرأة بذلك . هذا وان الطلاق باعتبار الوقت الذي يوقع فيه اقسام :

الأول : سني وهو ما كان موافقاً للسنة بأن يطلقها في طهر لم يجامعها فيه أو يطلقها وهي حامل بان حملها فيقع هذا الطلاق بلا خلاف .

الثاني : الطلاق البدعي وهو ما كان مخالفاً للسنة بأن يطلقها في الحيــض

والنفاس أو في طهر جامعها فيه وهذا الطلاق اختلف الفقهاء في وقوعه ، فمنهم من قال : لا يقع لأنه عمل غير موافق للشرع ولا يعتد به فلا يعتد بهذا الطلاق فلا يقع . وعند الجمهور انه يقع وان النهي عنه لا يستلزم الفساد وعدم الاعتداد وانما يستلزم الاثم للمطلق الثالث لا سني ولا بدعي وهو طلاق الآيسة والصغيرة وغير المدخول عليهـا حيث لا عدة عليها .

واما الطلاق بلفظ الثلاث كأن يقول الرجل لامرأته : انت طالق ثلاثا ، فاختلف فيه الفقهاء ايضا .

فالجمهور على ان الطلاق بلفظ الثلاث ليس بدعيا ويقع بائنا بينونة كبرى لا تحل له الا بعد التحليل ، وعند البعض انه لم يوجد في زمن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم جمع الطلقات الثلاث وانما كان الرجل يطلق امرأته مرة واحدة فيراجعها ان شاء ثم ان طلقها مرة ثانية يراجعها ان شاء واذا طلقها مرة ثالثة فلا رجعة له عليها ولا تحل له الا بعد التحليل فعلى هذا يكون جمع الثلاث بدعيا فلا يقع وعند بعض انه سني غير انه لا يقع به الا واحدة وله الرجعة عليها وهذا الخلاف مع ادلته مبسوطة في كتب الفقهاء فراجعها .

( واحصوا العدة ) اي احسبوها الى ان تنتهي وتنقضي فلا تتزوجوا المعتدة ولا تزوجوها ولتحبس هي نفسها عن الزواج حتى تنقضي عدتها تماما والعدة للمتوفى عنها زوجها ان كانت حاملا تنتهي بوضع حملها والا فبعد اربعة اشهر وعشرة ايام من يوم الوفاة . والمطلقة ان كانت صغيرة لم تحض او كبيرة يئست من الحيض فعدتهما ثلاثة اشهر من يوم الطلاق وان كانت حاملا فبوضع الحمل وان كانت تحيض فعدتها ثلاثة قروء اي ثلاثة اطهار أو ثلاثة حيض على اختلاف بين الفقهاء لان القرء جاء بمعنى الطهر والحيض ، واي نكاح عقد في أيام العدة فهو نكاح فاسد اجماعا . ( واتقوا ) اي واجتنبوا العذاب بأن لا تعصوا الله ( ربكم ) فتمتثلوا أوامره وتجتنبوا ما نهى عنه ولا تتجاوز واحدوده ولا تطلقوا النساء في الحيض او في طهر جامعتموهن فيه . ( لا تخرجوهن ) اي المطلقات ( من بيوتهن ولا يخرجن ) نهى الله تعالى الرجال ان يخرج مطلقته من بيتها ونهى المطلقة

ان تخرج هي من بيتها الى ان تنتهي العدة وتنقضى الا لضرورة داعية الى الخروج فترجع فورا . ( الا ان يأتين بفاحشة ) اي بخصلة سيئة ( مبينة ) واضحة لا يمكن المساكنة معها فحينئذ يجوز اخراجها ( وتلك ) وهذه الحدود من عدم جواز الطلاق في الحيض والنفاس او في طهر جامع فيه ومن وجوب احصاء العدة وعدم اخراج الزوج مطلقته من بيتها وعدم خروجها باختيارها كل هذه الامور ( حدود الله ) اي احكامه ( ومن يتعد حدود الله ) فلم يطبقها ولم يراعها ( فقد ظلم نفسه ) لانه يعرضها على العذاب بارتكاب ما نهى الله تعالى عنه ( لا تدري ) اي لا تعلم ما في المستقبل فانه ( لعل ) ببقائها في بيتها وتحت نفقة ورعاية زوجها تتحرك الدوافع من الرجل فيراجعها ولا يكون هذا الطلاق سببا للفرقة النهائية بينهما لان الطلاق مضرة للزوجين ولذا كان مبغوضا عند الله تعالى وما أحله الا عند ضرورة ملجئة اليه وهذا معنى قوله تعالى ( لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا ) وهو الرغبة في ارجاعها الى نكاحه .

« فاذا بَلَغْنَ أجَلَهُنَّ فأمسكُوهُنَّ بِمعرُوفٍ أو سَرِّحُوهُنَّ بِمَعرُوفٍ وَأشْهِدوا ذَوي عَدْلٍ مِنْكُمْ وأقيمُوا الشَهادَةَ لله ذلكُمْ يُوعَظُ بِه مَنْ كان يُؤمِنُ بالله واليوْمِ الآخرِ وَمَنْ يَتَّقِ الله يَجْعَلْ لَهُ مَخْرجاً » .

« فاذا بلغن أجلهن » اي فاذا شارفن على أجلهن وقرب انتهائه بحيث بقي زمن يسع الرجعة . « فأمسكوهن » اي راجعوهن « بمعروف » اي بنية صالحة ومعاشرة حسنة . « أو فارقوهن بمعروف » بأن تعطوهن مهورهن ومتعتهن تماما دون نقصان ، ولا تراجعوهن لتطلقوهن مرة اخرى فتطول عليها العدة كما قال تعالى في سورة البقرة ( ولا تمسكوهن ضررا ) اي لمجرد الاضرار بها بتطويل عدتها . « وأشهدوا » على الطلاق والرجعة أو على الرجعة فقط وهل الاشهاد واجب او مستحب فيه خلاف .

قال القرطبي : الظاهر ان الامر بالاشهاد راجع الى الرجعة فان راجع بدون اشهاد فالرجعة صحيحة عند بعض وباطلة عند البعض الاخر وقيل : « واشهدوا » اي على الطلاق والرجعة . وهذا الاشهاد مندوب عند ابي حنفة

مطلقا ، وعند الشافعي واجب في الرجعة مندوب في الطلاق وعند البعض الاشهاد شرط في وقوع الطلاق فان لم يشهد لم يقع والخلاف مع الادلة مبسوط في كتب الفقه . وفائدة الاشهاد ان لا يقع بينهما التجاحد وان لا يتهم في امساكها بالفسق ولئلا يموت احدهما فيدعي الاخر ثبوت الزوجية ليرث . ( ذوي عدل منكم ) من المسلمين وهل تقبل شهادة النساء ؟ فقال بعض نعم وقال الاخرون لا تقبل شهادة النساء فيما عدا الاموال . ( وأقيموا الشهادة ) قيل معناه اذا استشهد احدكم فليحتمل الشهادة لان تحمل الشهادات فرض كفاية وقيل معناه اذا تحملتم فأدوها . ( لله ) لاجل رضاء الله تعالى ويجوز ان يراد المعنيان حيث لا تنافي بينهما بل كل منهما مأمور به ( ذلكم ) ذلكم المذكور من الاحكام وآداب الطلاق . ( يوعظ به ) اي يؤمر به ( من كان يؤمن بالله واليوم الاخر ) فانهم هم الممتثلون للاوامر والمستفيدون منه وفيه اشارة الى ان من اتعظ بهذه الاوامر وتأدب بهذه الاداب فهو مؤمن صادق ومن لا فلا . ( ومن يتق الله ) فعمل في كل شيء حسبما أمره به ووعظه الله . ( يجعل ) الله تعالى ( له مخرجا ) من كل ضيق ، فان الله تعالى لا يأمر عباده الا بما فيه مصلحتهم ومنفعتهم وسعادتهم في الدارين ولو امتثلوا لسعدوا فيهما وأفلحوا . ( ويرزقه من حيث لا يحتسب ) اي ومن يتق الله فلم يرتكب ذنبا عند طلب الرزق ولم يطلب محرما يرزقه الله تعالى ( من حيث ) اي من الجهة التي ( لا يحتسب ) انه يرزق من هذه الجهة .

« حكاية »

يحكى ان رجلا نزل ببلدة للتجارة فرأى ( لؤلؤة ) تباع بألف دينار وكانت له بنت يحبها كثيرا حيث لم يكن له غيرها من الاولاد فأشترى اللؤلؤة كهدية لها فبعد ان اشتراها فقدها فأستأجر مناديا فنادى من عثر على لؤلؤة كذا فأعادها فله جائزة مائة دينار وقد التقطها شاب عفيف تقي وكان في غاية الفقر والفاقة ولا يملك شيئا من المال وكان بأحوج ما يكون الى المال فلما سمع النداء ركض وراء المنادي فقال : دلني على صاحب اللؤلؤة فلما لقيه ردها اليه فأخرج الرجل مائة دينار وقدمها الى الفتى ، الا ان الفتى أبى ان يقبل شيئا منها وقال : لم اردها عليك الا لوجه الله تعالى وابتغاءً لمرضاته .

فمضت أيام وصادف ان سافر الشاب الى جهة وركب السفينة فأصيبت السفينة • مما اضطر ربانها الى ان يوقفوها في شاطىء فخرج الفتى وتوجه الى البلد وحيث كان غريبا وقلبه متعلقا بالمساجد توجه الى مسجد البلدة فلما رآه المصلون ورأوا في وجهه سيما الصلاح رحبوا به وبقي اياما هناك وبعدما عرف القوم الادب والتقوى والعلم منه عينوه معلما للاطفال وبعد مدة قال له أحد اصدقائه : الا تتزوج • فقال : كيف ولا املك شيئا ، قال : افأن دعيت الى فتاة ثرية ذات دين وعفة وحسن وجمال ، قال : لا مانع عندي • فخطبوا له الفتاة فلما دخل عليها وجد في جيدها قلادة وفي مؤخرتها تلك اللؤلؤة التي ردها الى صاحبها ، فقال : من اين لك هذه اللؤلؤة ، فقالت : ان لهذه اللؤلؤة قصة عجيبة وقصت : أن أباها اشتراها لها ثم فقدها فأعلن عن جائزة لمن ردها اليه فردها اليه فتى ولم يقبل الجائزة حيث لم يردها الا لابتغاء وجه الله تعالى • ثم قالت : فكان ابي دائما يدعو ان يأتي الفتى ويسكن هذه البلدة فيزوجه بنته • فقال الفتى : اذاً والله قد استجاب الله دعوة أبيك وأنا ذلك الفتى •

« ومن يتوكل على الله » فيفوض اليه أمره « فهو حسبه » وييسر له الامور روى عن جابر بن عبدالله رضى الله تعالى عنهما : ان هذه الآية نزلت في عوف بن مالك الاشجعي وذلك انه أسر ولده وضيق عليه رزقه فشكى ذلك الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وقال : ان العدو اسر ابني وضرعت الام فما تأمرني فقال عليه السلام : اتق الله واصبر ، آمرك واياها ان تستكثرا من قول لا حول ولا قوة الا بالله ، فعاد الى بيته وقال لامرأته ان رسول الله صلى الله تعالى وآله وسلم أمرني وأياك ان نستكثر من قول لا حول ولا قوة الا بالله فقالت : نعم ما أمرنا به فجعلا يقولانه ، فغفل العدو عن ابنه فساق غنمهم وجاء بها الى أبيه • وهي اربعة آلاف شاة فنزلت الآية وجعل النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم تلك الاغنام له •

ومناسبة هذه الآية لآيات الطلاق ان المرأ اذا اتقى الله وجعل معاملاته وفي ضمنها الطلاق وفق ما رسم الله تعالى له ولم يخالف أمره يجعل له من ضيق ، فراق الزوج والندامة من التطليق الى غير ذلك من نتائج الطلاق

والفراق مخرجا ( ان الله بالغ أمره ) اي ان الله منفذ امره وارادتـــه . اتقى الناس او لم يتقوا . الا انه ( قد جعل لكل شيء قدرا ) أي أجلا ينفذ أمره حينما حان الاجل ولكـــن هذه الامور يأمر الله تعالى بها لانها أســـباب اعتيادية تجلب رحمة الله تعالى ونتائجها وقد جرت عادة الله تعالى بخلــق تلك النتائج عندها لا انها تجبر الله تعالى على ذلك .

فائـــدة

في بيان كراهــة الاسلام للطلاق وانه لا يجوز الطلاق الا في حــالات ضرورية تلجيء اليه ولا مناص منه ، وذكر القرطبي احاديث في هذا الموضوع فقال رحمه الله تعالى :

١ ـــ روى الثعلبي مـــن حديث ابـــن عمر قال : رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « ومن أبغض الحلال الى الله الطلاق » .

٢ ـــ عـــن علي رضى الله تعالى عنه عـــن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال : « تزوجوا ولا تطلقوا فان الطلاق يهتز منه العرش »

٣ ـــ عـــن أبي موسى الاشعري رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « لا تطلقوا النساء الا من ريبة فان الله عز وجل لا يحب الذواقين ولا الذواقات » .

٤ ـــ عـــن انس رضى الله تعالى عنه قال : قـــال رســـول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « ما حلف بالطلاق ولا استحلف به الا منافق » .

والاحاديث في الموضوع كثيرة جدا . هذا ولكـــون الطلاق مكروها ومبغوضا الى الله تعالى ترى ان الله تعالى جعل له حدودا وأسيجة يكـــاد يتعذر الطلاق على المرأ ولا يجد . فانه اولا : حرم ان يطلق الرجل امرأتـــه وهي في الحيض ثانيا : حرم ان يطلقها في طهر جامعها فيه ومن الصعـــوبة ان تكون المرأة في الحيض ثم تطهر فيصبر الرجل عـــن جماعها فيطلقها قبل ان يجامعها فان الشهوة تتراكم في حال الحيض وينحبس الجنس فيكون مـــن الصعوبة عدم التقرب اليها فيطلقها فورا . ثالثا : جعل الطلاق مرتين وجعل بعد كل طلقة منهما حق الرجعة ما دامت في العدة وجعل لهما حق تجديد النكاح بعد انتهاء العدة بدون محلل .

رابعا : أمر ان لا يخرج المرأة من بيتها مدة العدة وان لا يخرجها زوجها وفي بقاءها هذه المدة في البيت والزوج يراها ويراعي شؤونها وينفق عليها فقليلا ما لا تحدث في هذه الحالة الرغبة من الزوج في رجعتها • فاذا طلقها ثالثة فمعنى ذلك انه وصلت النفرة بينهما الى حد لا يمكن التعايش بينهما ابدا وفي ذلك الوقت فالفراق أحسن من بقائهما على هذه النفرة المستعرة والجحيم التعايشي والجمع بين الضدين أو بالاحرى بين العدوين كما لا يخفى على من له عقل وبصيرة في ادراك الحقائق والامور • ولعمري لو كان المسلمون صادقين في اسلامهم ولم يعملوا ما يخالف دينهم وطبقوا اوامر الله تعالى في الطلاق ولم يطلقوا الا حسب ما أمر الله لاصبح الامر انه لا يوجد الطلاق في المسلمين الا نادرا جدا وفي حالات ملجئة تدعو اليه ولكن للاسف الشديد لا نجد عند المسلمين مراعاة آداب الاسلام في الطلاق كما لا يراعون آدابه في غيره من الشؤون فلا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم •

سؤال ·

فاذا كان الطلاق بهذه الحالة من الكراهية والمبغوضية الى الله تعالى فلماذا شرعه الله ؟ •

الجواب :

قد شرع الله تعالى الطلاق اراحة للزوجين في حالة حدوث نفرة بينهما تقضي على صفو الحياة وتكدر معيشة كلا الطرفين بحيث يتمنى كل طرف ان يكون بينهما بعد المشرقين وفي تلك الحالة ايضا لم يبح الله تعالى ايقاع الطلاق فورا بل أمر انه اذا وقع شقاق يرسل حكمان حكم من أهل الزوج وحكم من أهل المرأة ويسعيان للاصلاح والتوفيق بينهما فان علما انه لا مجال للاصلاح ولا يمكن التوفيق فحينئذ يحكم بالتفريق بينهما تفريقا رجعيا يمكن الرجعة بعده وفي مثل هذه الحالة لا يوجد احد من ذوي العقول ان لا يبيح الطلاق ويحكم عليهما بالبقاء على هذه الحالة التي هي أقسى من جهنم وبئس المصير فالطلاق لم يشرع الا في مثل هذه الحالة من الاحوال التي يشق فيها التعايش بينهما • ثم بعد ان أمر الله تعالى باحصاء العدة وان للزوج الرجعة اثناء العدة وقد بين الله تعالى العدة في غير هذه السورة

لذوات الحيض بانها ثلاثة قروء أراد تعالى ان بين عدة النساء اللاتي لم يحضن لصغرهن واللاتي يئسن من المحيض لكبرهن وعدة ذوات الحمل فقال تعالى :

« وَاللائي يَئِسْنَ مِنَ المَحِيضِ مِنْ نِسَاءِكُمْ انْ أرتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثلاثَةُ أشْهُرٍ واللائي لمْ يَحِضْنَ وَأولاتُ الأحْمالِ أجَلُهُنَّ أنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أمْرِهِ يُسْراً » •

« واللائي يئسن من المحيض من نساءكم » لكبرهن وبلوغهن سنا لا تحيض النساء فيها عادة فلم يحضن « ان ارتبتم » في حكم عدتهن كم هي « فعدتهن ثلاثة أشهر » قمرية تماما •

« واللائي لم يحضن » لصغرهن وعدم بلوغهن سن الحيض او بلغن ولم يحضن بعد ، فعدتهن ثلاثة أشهر ايضا واما اللائي لم يبلغن سن اليأس وانقطع حيضهن ووقع الشك فيهن هل يئسن او انقطع دمهن مؤقتا ففيها ثلاثة أقوال :

الاول : ان عدتها ثلاثة اشهر ايضا •

الثاني : ان عدتها ثلاثة اشهر بعد تسعة أشهر تستبرىء بها مدة الحمل فتكون عدتها اثنى عشر شهرا •

الثالث : انها تصبر حتى تبلغ سن اليأس فتعتد ثلاثة أشهر بعد بلوغها سن اليأس •

« وأولات الاحمال » اي وذوات الحمل ( أجلهن ) عدتهن تنتهي حين « ان يضعن حملهن » ولو كان الوضع بعد لحظة من الفراق •

« ومن يتق الله » فعمل وفق ما أمر به « يجعل له من أمره يسرا » • ويوفقه على الخير في حياته في الدنيا ويسهل له اموره • واما بالنسبة للاخرة فقال تعالى : —

« ذلكَ أمْرُ اللهِ أنْزَلَهُ أليكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سيِّئاتِهِ وَيَعْظِمْ لَهُ أجْراً » •

« ذلك » الاحكام التي ذكرت « أمر الله » وحكمه « أنزله اليكم »

لتعملوا به وتطبقوه « ومن يتق الله » فلم ينحرف عن احكامه ولم يخالف أمره « يكفر عنه سيئاته » ذنوبه « ويعظم له أجرا » ثوابا في الآخرة .

« أسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى » .

ثم بعد ان ذكر الله العدة ذكر ما يجب على الازواج المعتدة فقال تعالى اسكنوا المعتدات « من حيث سكنتم » اي في المكان الذي تسكنون فيه « من وجدكم » مسكنا حسبما تجدون وتستطيعون وتقدرون عليه . والمعتدة أنواع :

الاول : المعتدة من الطلاق الرجعي : فهذه يجب لها على زوجها السكن والنفقة بالاتفاق .

الثاني : المعتدة من الطلاق البائن أو من الخلع أو اللعان وتسمى المبتوتة ففيها ثلاثة أقوال : أحدها انها يجب لها السكنى دون النفقة وهو مذهب مالك والشافعي . والثاني : يجب لها السكنى والنفقة وهو مذهب أبي حنيفة . والثالث : انها ليس لها سكنى ولا نفقة . وهذا كله في غير الحامل . وأما الحامل فلها النفقة والسكنى بدون خلاف .

الثالث : المعتدة عن الوفاة : قال في الخازن لا نفقة لها عند أكثر أهل العلم وعن علي رضي الله تعالى عنه : انها ان كانت حاملا فلها النفقة من التركة .

وأما السكنى : فللشافعي فيه قولان : احدهما انه لا سكنى لها بل تعتد حيث شاءت وهو قول ابي حنيفة ايضا . والثاني : لها السكنى وبه قال مالك واحمد ، انتهى .

« ولا تضاروهن » اي ولا تؤذوهن « لتضيقوا عليهن » ليخرجن من المسكن « وان كن اولات حمل » ذوات حمل « فأنفقوا عليهن

حتى يضعن حملهن » • قال الغرناطي : اتفق العلماء على وجوب النفقة مدة العدة للمطلقة الحامل عملا بهذه الآية سواء كان الطلاق رجعيا أو بائنا واتفقوا على ان للمطلقة الرجعية النفقة في العدة مطلقا • واما اذا كان الطلاق بائناً والمرأة غير حامل فاختلفوا فيه • وأما المتوفي عنها زوجها فلا نفقة لها عند مالك والجمهور سواء كانت حاملا أو غير حامل • وقال قوم للحامل النفقة من التركة ـ انتهى مع بعض الاختصار ـ •

ثم بعد ان ذكر الله تعالى حكم الحامل في حالة الحمل ذكر حكمهما بعد الحمل من انه ليس عليها ان ترضع الولد فقال وعز من قائل : « فان أرضعن لكم » الولد « فآتوهن أجورهن » اي فأعطوهن اجرة الرضاع وهنا كأن قائلا يقول : فما هي مقدار أجرة الرضاع فقال تعالى « وأتمروا » واتفقوا بعد المشاورة والتداول « بينكم » على مقدار الاجرة « بمعروف » بحيث لا يكلف الزوج أكثر من طاقته ولا تكلف المرأة ما يضرها وتغبن فيه • « وان تعاسرتم » اي وان اختلفتم في اجرة الرضاع فلم تتفقوا فليس لكم اجبارها على الرضاع مجانا او بما تريدون من الاجرة وليس لها ان تجبركم على ان تسترضعوها حسبما تريد بل « فسترضع » الولد « له » للوالد « أخرى » امرأة أخرى تستأجر لذلك أو ترضعه مجانا • ولكن اذا علم ان الولد يتضرر اذا لم ترضعه أمه فيجبر القاضي الام على الرضاع بأجرة المثل • ثم بعد ان ذكر تعالى وجوب النفقة على الزوج للمعتدة من طلاقه واجرة الرضاع بين تعالى ان النفقة وأجرة الرضاع تقدر حسب حال الزوج فقال تعالى :

« لِيُنْفِقْ ذو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ ومن قُدِرَ عليهِ رزقُه فلينفق مما آتاه الله لا يُكَلِّفُ اللهُ نفساً الا ما آتاها سَيَجْعَلُ الله بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً » •

« لينفق ذو سعة » اي يجب ان ينفق الغني والثري « من سعته » ما يناسب غناه وثروته بأن يصرف مثل ما يصرف امثاله على أزواجهم من الاواسط لا البخلاء ولا السفهاء ولا يجوز للغني ان ينفق على معتدته مثل ما ينفق فقير أو مسكين • « ومن قدر » اي ضيق وقل « رزقه » فكان فقيراً

لينفق هو « مما آتاه الله » حسب ماله « لا يكلف الله نفسا » ان ينفق على معتدته « الا ما آتاها » الا بقدر ما اعطاها من المال وحسب حالها • أيساراً وأعساراً وكذلك الحكم في أجرة الرضاع ونفقة الرضيع ونفقة الاهل والاولاد وكل من يجب عليه نفقته • وبعد أن ذكر الله تعالى هذه الاحكام خوف تعالى المسلمين بالعقوبة في الدنيا قبل الآخرة اذا لم يطبقوا هذه الاحكام ولم يعملوا بها فقال وعز من قائل •

« وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحاسَبْناها حِساباً شَدِيداً وَعَذَّبْناها عَذاباً نُكْراً » •

« وكأين » وكثيراً « من قرية » من القرى « عتت » تولى اهلها « عن أمر ربها ورسله » عن اطاعة أمر ربهم الذي بلغهم رسله فلم يعملوا حسب أمره ولم يطبقوا شريعته « فحاسبناها » ناقشناها ودققنا في ذلك الى ان حاسبناها « حسابا شديدا » دقيقا « وعذبناها عذاباً كريها وهذا كناية عن شدة العذاب •

« فَذاقَتْ وَبالَ أَمْرِها وَكانَ عاقِبَةُ أَمْرِها خُسْراً » •

« فذاقت » طعمت « وبال أمرها » اي عذاب انحرافها عن دين الله وشريعته واحكامه بأن عذبوا في الدنيا « وكان » وصار في النتيجة « عاقبة » ثمرة « أمرها » عصيانها لامر الله والرسل « خسراً » خسارة كبيرة لا تعوض ولا تجبر وذلك في الآخرة وأي خسارة أكبر من خسارة الآخرة ثم فسر تعالى تلك الخسارة فقال وعز من قائل :

« أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذاباً شَدِيداً فَاتَّقُوا اللهَ يا أُولِي الأَلْبابِ الذينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً » •

« أعد الله لهم » أعد الله لاصحاب هذه القرى وبهذا يعلم ان الضمائر في عتت وأمر ربها وحاسبناها وعذبناها وفي وبال أمرها وعاقبة أمرها كل هذه الضمائر عائدة الى القرى مجازاً والمراد بها أهلها لان هذه الصفات كلها من صفات الاهل لا من صفات القرى « أعد الله لهم » لأصحاب هذه القرى بسبب انحرافهم عن دين الله • « عذابا شديدا » في الاخرة • « فأتقوا الله » اي أحفظوا انفسكم من عذاب الله بسبب الانحراف عن

دينه « يا أولي الألباب » يا أصحاب العقول • « الذين آمنوا » بدل عن أولي الألباب فالمعنى فاتقوا الله ايها المؤمنون فانه قد « انزل الله اليكم ذكراً » كتابا وهو القرآن واحكاماً وهي الاسلام فلا تنحرفوا عنه والا فتعذبون في الدنيا والآخرة كما عذب من قبلكم لانحرافهم عما انزل اليهم وهذه سنة الله تعالى في عباده كلما عتت أمة عن دين ربها عذبها الله تعالى في الدنيا بالذل والهوان وفي الآخرة بجهنم وبئس المصير ولن تجد لسنة الله تبديلا ثم بين تعالى كيف انزل الذكر فقال وعز من قائل :

« رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ الى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ اللهُ لَهُ رِزْقاً » •

« رسولا » انزل الله اليكم ذكراً بأن ارسل اليكم « رسولا يتلو عليكم آيات الله » اذا فسرت الآيات بالاحكام فتكون « مبينات » بفتح الياء وبمعنى واضحات واذا فسرت بجمل من القرآن الكريم فيجوز فتح الياء في ( مبينات ) بمعنى واضحات وكسرها بمعنى موضحات لان هذه الجمل توضح أحكام الله وما يأمر به وينهى عنه وقد وردت القراءتان « ليخرج » أي ليخرج الرسول بتلك الآيات والاحكام والارشادات والمواعظ « الذين آمنوا » به وبتلك الآيات « من الظلمات الى النور » اي من ظلمات الجهل الى نور العلم وظلمات الجور الى نور العدل ومن ظلمة الفوضى الى نور النظام ومن ظلمة الفجور الى نور العفة ، ومن ظلمة الوثنية الى نور التوحيد والى غير ذلك فكل ما يأمر به الرسول نور وكل ما ينهى عنه فهي ظلمة • « ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا » والعمل الصالح هو ما كان موافقا للشرع الشريف وحسب قواعد الاسلام • « يدخله » الله « جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها أبدا » مر تفسيرها في مواضع كثيرة • « قد أحسن الله له رزقا » في الجنة يوم القيامة • ثم بين تعالى عظمة الله تعالى ، ومن ذلك يفهم عظمة انعامه وحسن رزقه واستحقاقه للعبادة والايمان به فقال تعالى :

« اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الارْضِ مِثْلَهُنَّ

يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً » .

« الله » عظيم لا يدرك كنه عظمته ويدل على عظمته هذه انه « خلق سبع سموات طباقا » . « ومن الارض مثلهن » . قال الغرناطي : — اختلفوا في هذه الفقرة ، فقيل انها سبع أرضين لظاهر هذه الآية فقوله مثلهن اي مثل السموات في العدد وهو السبع وقيل انها واحدة وقوله مثلهن المراد بالمماثلة المماثاة في عظم الجرم وكثرة العمارة والمنافع وقد رجح المعنى الاول لقوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : « من غصب شبراً من أرض طوقه الله تعالى يوم القيامة من سبع ارضين » أقول . ولا يستفاد من هذا الحديث انه توجد سبع أرضين اذ المراد به سبع طبقات هذه الارض لانه حينما يغصب شبراً في أرض يغصبه الى سبع طبقاتها فيطوق من هذه السبع ولا يعقل انه يغصب شبرا في أرض فيطوق منها ومن ست أرضين اخرى والذي يقول ان الارضين سبع فأين الست الاخرى والى الان لم يكشف الا أرض واحدة . « يتنزل الامر » والامر من الله تعالى أي ان الامر من الوحي والتكوين والايجاد والتقدير بين السماوات والارض وفيها تنزل من الله تعالى وخلق الله تعالى هذه السماوات والارض ( لتعلموا ) اللام ليس للعلة والغاية بل للتعقيب والنتيجة فالمعنى فتكون العاقبة من هذه الأشياء والتفكير فيها « ان تعلموا ان الله على كل شيء قدير » فان من خلق السموات ومثل هذا الخلق يجب ان يكون على كل شيء قديرا « وان الله احاط بكل شيء علما » اي أحاط علمه بكل شيء فان مثل هذا الخالق لابد وأن يكون له علم بكل شيء فيحاسبكم وفق علمه .

بأعمالكم من خير وشر وصلاح وفساد وكفر وأيمان ولا يغيب عنه شـــي، وان لذلك الحساب يوما هو يوم الآخرة .

حفظنـــا الله تعالى من كل شر وخسارة

وجعلنـــا مـــن عبـــاده الأبرار ورزقنا

حسن الخاتمة آمين

ولا حول ولا قوة الا

بالله العظيـــم

وصلى الله على

المولى محمد

وآلـــه

وصحبه

اجمعين

## سورة التحريم

« سميت بذلك لما فيها من بيان حكم تحريم ما أحل الله »
« مدنية ، نزلت بعد سورة الحجرات وآياتها اثنتا عشرة »

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمْ

« يا أيُّها النَّبيُّ لِمَ تُحرِّمُ ما أحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرضاتَ أزواجِكَ واللهُ غَفورٌ رَحيمٌ » .

في سبب نزول هذه الآية روايتان :

الاولى : عن عائشة رضى الله تعالى عنها كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يحب الحلوى والعسل وكان اذا انصرف من العصر دخل على نساءه فيدنو من احداهن فدخل على حفصة بنت عمر فاحتبس عندها أكثر مما كان يحتبس فَغِرْت فسألت عن ذلك فقيل لي اهدت لها امرأة من قومها عكة من عسل فسقت النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم منه شربة فقلت : أما والله لاحتالن ، فذكرت ذلك لسودة وقلت اذا دخل عليك فانه سيدنو منك ، فقولي له : يا رسول الله أكلت معافير ، فإنه سيقول : لا ، فقولي: ما هذه الريح التي أجد ، وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يشتد عليه أن يوجد منه الريح ، فانه سيقول سقتني حفصة شربة عسل، فقولي جرست نحلة العرفط . وسأقول ذلك . وقولي أنت يا صفية ذلك . فلما دخل على سودة قالت تقول سودة والله الذي لا اله الا هو لقد كدت ابادئه بالذي قلت وانه لعلى الباب فرقا منك فلما دنا منها قالت سودة : يا رسول الله آكلت معافير ، قال : لا ، قالت : فما هذه الريح التي أجد منك ، قال : سقتني حفصة شربة عسل ، قالت : جرست نحلة العرفط . فلما دخل علي قلت مثل ذلك ، ثم دخل على صفية فقالت له مثل ذلك . فلما دخل على حفصة قالت له : يا رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم الا أسقيك

منه ، قال : لا حاجة لي فيه ، قالت . تقول سودة سبحان الله لقد حرمناه عليه ، قلت لها اسكتي ، وفي رواية ان التي شرب عندها العسل هي زينب بنت جحش فنزلت « يا أيها النبي لم تحرم سالخ » .

الثانية : ان النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم كان يقسم بين نسائه ، فلما كان يوم حفصة استأذنت رسول الله صلى لله عليه وآله وسلم في زيارة أبيها ، فلما خرجت أرسل رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم الىجاريته مارية القبطية فأدخلها بيت حفصة وخلا بها ، فلما رجعت حفصة وجدت الباب مغلقا فجلست عند الباب ، فخرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ووجهه يقطر عرقا وحفصة تبكي ، فقال : ما يبيكيك ، قالت : انما اذنت لي من أجل هذا ، ادخلت أمتك في بيتي ووقعت عليها في يومي وعلى فراشي ، أما رأيت لي حرمة وحقا ما كنت تصنع هذا بأمرأة منهن ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : ـ اليست هي جاريتي قد أحلها الله لي . اسكتي فهي حرام ، على التمس بذلك رضاك فلا تخبري بذلك امرأة منهن . فلما خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : قرعت حفصة الجدار الذي بينها وبين عائشة فقالت : الا أبشرك ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قد حرم عليه أمته مارية وقد اراحنا الله منها واخبرت عائشة بما رأت وكانتا متصافيتين متظاهرتين على أزواج النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم .

والرواية الاولى اقوى سندا ورواية ، الا ان الثانية اقوى معنى وأنسب بالسورة لسببين :

الاول : فان رضا الازواج في تحريم مارية له معنى ظاهر ومعقول ولا معنى لرضاهن في تحريم العسل وحبهن لذلك .

الثاني : فلأن للاسرار بخبر تحريم مارية والامر بكتمه معنى معقول ولا يوجد معنى وسبب في الاسرار بتحريم العسل والامر بكتمانه . ولذلك أخذ المفسرون كلهم بالرواية الثانية وفسروا السورة على ضوءها فقالوا : « يا أيها النبي » هذا الخطاب خطاب ملاطفة وليس خطاب معاتبة ، « لم تحرم ما أحل الله لك » وهي مارية جاريته والمراد بالتحريم الامتناع عنها لا التحريم

الشرعي فان التحريم والتحليل بيد الله تعالى وليس بيد احد سواه • « تبتغي » بذلك التحريم « مرضاة أزواجك » حيث كـن يحببن تحريمها اذ كن يحببن تقليل الضرات والمشاركات في صحبة رسول الله صلى الله تعالى عليه وآلـه وسلم وهذه طبيعة جبلية لا يمكـن للنساء التخلي عنها مهما بلغـن مـن التقوى والصلاح ومـن العلم والثقافة سيما اذا كان الزوج عظيما بل رسولا مـن الله تعالى ، فلم يكـن في حبهـن ذلك اثم ولا ملامة حيث لا يؤاخـذ الانسان على ما لا يمكنه التخلص منها • فحينما نزلت هذه الفقرة من الآيـة أوجس الرسول في نفسه خيفة من انه اصابه اثم في التحريم فقال له تعالى « والله غفور » غفر لك مـن هذا التحريم فلم يعتبره اثما ( رحيم ) بـك فيتدارك امرك في كل الامور ، او المراد « غفور » لنسائك اللاتي اشتركن في هذه المؤامرة التي أدى بك الى تحريم جاريتك « رحيم » بهـن ولذلـك غفر لهـن •

« قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أيمانِكُمْ واللهُ مَوْلاكُـمْ وهُـوَ العَلِيُّ الحَكِيمُ » •

« قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم » اي لا تمتنع عن التمتع بجاريتك بسبب تحريمك أياها بل تمتع بها وأد كفارة مثل كفارة اليمين و « قد فرض » اي عين الله تعالى « لكم » ما يكون « تحلة أيمانكم » أي سببا لنقض أيمانكم « والله مولاكم » متولي أموركم فتولى أمر أيمانكم بنقضها بالكفارة « وهو العلي » الذي لا يرد أمره وينفذ حكمه « الحكيم » لا يحكم بشيء الا وفيه حكمة عظيمة •

مسئلة :

استدل بعض العلماء بهذه الآية على ان تحريم الحـلال يمين يوجب الكفارة على من حرمه اذا اراد الرجوع الى التمتع به ، والذي لا يرى تحريم الحلال يمينا يقول ان الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم حينما حـرم العسل او مارية حلف على ان لا يأكل من العسل اولا يتمتع بمارية ولذلـك أوصاه الله تعالى بالكفارة لحلفه لا للتحريم • فنود ان نذكر آراء العلمـاء فيمن حرم على نفسه حلالا وما هو حكمه فنقول : لو حرم المكلف على نفسه

شيئا غير زوجته لم يلزمه بذلك شيء عند مالك والشافعي رضى الله تعالى عنهما • وتحب بذلك كفارة عند ابن مسعود والثوري وأبي حنيفة رضي الله تعالى عنهم في تحريم كل حلال • وأما اذا قال لزوجته : انت علي حرام ففيه ثمانية عشر قولا ذكرها القرطبي في تفسيره :

احدها : انه لا شيء عليه وبه قال الشعبي ومسروق وربيعة وأبو سلمة وهو عندهم كتحريم الماء والطعام لا شيء فيه •

ثانيا : انها يمين يكفرها كفارة اليمين ، قاله ابو بكر الصديق وعمر الخطاب وعبدالله بن مسعود وابن عباس وعائشة والاوزاعي رضى الله تعالى عنهم ، وهو مقتضى الآية •

ثالثها : انها تجب فيها الكفارة وليست بيمين قاله ابن مسعود وابن عباس في احدى روايتيه والشافعي في أحد قوليه •

رابعها : هي ظهار ففيها كفارة الظهار قاله عثمان واحمد بن حنبل واسحاق •

خامسها : انه ان نوى ظهارا كان ظهارا وان نوى تحريم عينها عليه بغير طلاق تحريما مطلقا وجبت كفارة يمين ، وان لم ينو شيئا فعليه كفارة يمين قاله الشافعي •

سادسها : انها طلقة رجعية قاله عمر بن الخطاب والزهري وعبد العزيز بن ابي سلمة وابن الماجشون رضي الله تعالى عنهم •

سابعها : انها طلقة بائنة قاله حماد بن ابي سليمان وزيد بن ثابت ورواه ابن خويز متداد •

ثامنها : انها ثلاث تطليقات ، قاله علي ابن أبي طالب وزيد بن ثابت أيضا وأبو هريرة •

تاسعها : هي في المدخول بها ثلاث وما ينوى في غير المدخول بها قاله الحسن وعلي بن زيد والحكم وهو مشهور مذهب مالك رضي الله عنهم •

عاشرها : ثلاث في الوجهين ولا ينوي في شيء قاله عبدالملك في المبسوط وبه قال أبن ليلى •

والحادي عشر : هي في المدخول بها ثلاث وغيرها واحدة قاله ابن مصعب ومحمد بن الحكم •

والثاني عشر : انه ان نوى الطلاق أو الظهار كان ما نوى فان نوى الطلاق فواحدة بائنة أو اثنتين فواحدة وان نوى ثلاثا فثلاث وان لم ينـــو شيئا فيمين وحكمها حكم الايلاء وبه قال ابو حنيفة واصحابه وزفر الا انه قال اذا نوى اثنين فاثنين •

والثالث عشر : انه طلاق ولا ينفعه نية الظهار • قاله ابن القاسم •

والرابع عشر : قال يحيى بـن عمر يكون طلاقا فان ارتجعها لا يجــوز له وطوؤها حتى يكفر كفارة الظهار •

والخامس عشر : ان نوى الطلاق فما أراده من عدده فان نوى واحـــدة فهي رجعية وهو قول الشافعي رضى الله تعالى عنه وروى مثله عـن ابي بكر وعمر وغيرهم من الصحابة والتابعين رضى الله تعالى عنهم والظاهـر انه ان نوى اثنتين فرجعية أيضا •

والسادس عشر : ان نوى ثلاثا فثلاث وان واحدة فواحدة وان نوى يمينا فيمين وان لم ينو شيئا فلا شيء عليه وهو قول سفيان وبمثله قال أبو ثــور والاوزاعي الا انهما قالا ان لم ينو شيئا فواحدة •

والسابع عشر : له نيته ولا يكون أقل من واحدة قاله ابن شهاب، وان لم ينـو شيئا لم يكـن شيء قاله ابن العربي •

الثامن عشر : ان عليه عتقا وان لم ينو ظهارا • انتهى ما في القرطبي من ذكـر الاقوال •

ثم بين القرطبي سبب الخلاف وادلة القائلين ولا يسع المجال لنقلها هنا فراجعه ان شئت •

« وإذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ الى بَعْضِ أزْواجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وأَعْرَضَ عَنْ بعْض فلما نبأها بِهِ قالَتْ مَنْ أنْبأكَ هذا قال نَبأَني العَلِيمُ الخَبِيرُ » •

« واذ اسر النبي الى بعض أزواجه حديثا » اي واذ أخفـى الرسـول صلى الله تعالى عليه وسلم كلاما فلم يذكره لاحد الا انه أفضى به الى بعض أزواجه وأمرها ان تكتمه ولا تفشيه بين الأزواج الاخريات ولكنها أفشـت ذلك الكلام وأخبرت به غيرها وفشى الكلام بين الازواج الطاهرات « فلمـا

نبأت به » فلما أخبرت بذلك الكلام غيرها « وأظهره الله عليه » اي واطلع الله رسوله على افشاءها للكلام المذكور ( عرف ) الرسول اي ذكر لزوجه التي أفشت الحديث « بعضه » لاكله وقال لها قد قلت وذكرت لغيرك كذا وكذا « وأعرض عــن بعضه » فلم يذكره وذلك لانه اذا عرف الانسان غيره ببعض ما قال علم انه اطلع على كل ما قال فلا حاجة الى ذكر الكل « فلما نبأها به » فلما اخبر الرسول زوجه افشاءها الكلام « قالت » الزوج « من انبأك هذا » وممن سمعت اني افشيت هذا الحديث « قال » الرسول « نبأني » اخبرني بذلك « العليم » بكل عمل « الخبير » بكل قول ولا يغيب عنه شيء وهو الله تعالى .

تنبيه :

لم يبين الله تعالى الحديث الذي أسر به الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم الى احدى أزواجه بل تركه مبهما ولذلك اختلف النـــاس فيه فقال بعضهم : ـ هو تحريم مارية ، وبعضهم قال : هو تحريم العسل ، وقال بعضهم هو قوله : ان ابا بكر وعمر سيكونان خليفة بعده . والذي يفهم من ســـياق الآيات الكريمة ان الحديث كان مما احدث بلبلة في بيت الرسول وبين أزواجه الطاهرات وكان السبب لافشاء هذا الحديث واحداث هذه البلبلة اثنتان من ازواجه والمشهور انهما حفصة وعائشة رضى الله عنهما فسبب ذلك ان غضب الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم على أزواجه كلهن عامة وعلى اللتين كانتا سببا لتلك البلبلة خاصة فقال تعالى في حقهما :

« ان تَتوبا الى اللهُ فقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكما وَانْ تَظاهرا عليــه فانَّ الله هوَ مَوْليهَ وَجِبْرِيلُ وصالِحُ المؤمنين وَالملائِكَةُ بَعْدَ ذلكَ ظهــيرٌ » .

« ان تتوبا الى الله » فذلك من واجبكما حيث « فقد صغت » مالت عن الصواب « قلوبكما » فيجب عليكما ان تتوبا وان لا تعودا الى مثل ذلــك أبداً « وان تظاهرا عليه » وان بقيتما على تظاهركما وتعاونكما على فعل مـــا يكون « عليه » على الرسول مما يسوءه وذلك لافراط الغيرة فلا تنجحان في ذلك حيث « فان الله هو موليه » ناصره « وجبريل » ناصره ايضا « وصالح

المؤمنين » ينصرونه فلا تستطعن انتن ولا غيركن الغلبة والسيطرة عليه .
ثم عاتب الله تعالى على ازواج النبي عامة وخوفهن بطلاق رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم لهن اذا لم يتبن من اثارة ما يؤذي رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال وعز من قائل :

« عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً » .

« عسى ربه » كلمة عسى من الله تعالى للتحقيق لا للتقريب فالمعنى ان ربه اي رب النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وخبر عسى قوله « أن يبدله أزواجاً » اي ان ربه سيبدله ازواجا ...الخ . « ان طلقكن » نتيجة استمراركن على هذه الحالة من الافراط في الغيرة واحداث البلبلة لاجلها « خيرا منكن » اي منكن بعد الطلاق لو فرض وجوده فانهن كن خير النساء ولم توجد خير منهن بسبب كونهن في عصمة الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فلو زالت هذه الخاصية ذهبت خيريتهن وينال بها من ينال تلك الخاصية وهن اللاتي يأتين مكانهن . « مسلمات » منقادات لاوامر الرسول « مؤمنات » يؤمنن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم من أحداث المشاكل في البيت « قانتات » مطيعات . « تائبات » راجعات الى أمره غير مخالفات له « عابدات » لله تعالى « سائحات » صائمات « ثيبات » جمع ثيبة سميت ثيبة من ثاب أي رجع لان المرأة تثوب وترجع الى بيت ابيها بعد فراق زوجها « وأبكارا » جمع بكر سميت بكرا لانها على حالتها الاولى ولم تفتض . وبهذا العتاب وبهذا التخويف والتهديد بالطلاق وابدالهن بخير منهن سكنت الازواج الطاهرات وامتثلن أوامر الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وأصبحن متأدبات بآداب الله ومتخلقات باخلاق أمر بها الله تعالى وبذلك حفظن أنفسهن من عذاب الله تعالى وبعد ما تأدبت أزواج الرسول بآداب حفظن بها أنفسهن من عذاب الله ، أمر الله تعالى المؤمنين جميعا ان يحفظوا أنفسهم وأهلهم من العذاب فقال تعالى : ـ

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا

النّاس ُ والحِجارة ُ عَلَيْها مَلائكة" غِلاظ" شِداد" لا يَعْصُون َ الله ما أمَر َهُم ْ ويَفْعَلو ُن َ ما يُؤ ْمَر ُون » .

« يا أيها الذين آمنوا » ان صدقتم في أيمانكم « قوا انفسكم وأهليكم نارا » احفظوا أنفسكم وأهليكم من جهنم وذلك بأن تطيعوا أوامر الله تعالى ولا تخالفوا شريعته ، وبأن تؤدبوا أهليكم وأولادكم بآداب الاسلام وتدربوهم على أخلاق القرآن وتجنبوهم المعاصي والفجور وتحثوهم على الطاعات والعبادات واداء ما فرض الله تعالى عليهم في الدين والاجتناب عما نهى عنه ثم وصف تعالى جهنم بقوله « وقودها » أي وقود تلك النار « الناس والحجارة » والوقود ما يطرح في النار لتتقد وتلتهب وتشتعل « عليها » اي وكل على تلك النار لايقادها والقاء الناس فيها « ملائكة غلاظ » أي قساة قلوبهم لا يرحمون أحدا « شداد » أقوياء لا يقاومهم أحد « لا يعصون الله ما أمرهم » من القاء الناس في جهنم « ويفعلون ما يؤمرون » به من تعذيبهم واهانتهم ، ثم أخبر تعالى عن حال الكافرين حينما يلقون في هذه النار وانهم يعتذرون عن كفرهم ومعاصيهم فيجيبهم الله تعالى في ذلك الوقت كما قال :

« يا أيّها الّذين َ كَفَروا لا َتعْتَذِروا اليَو ْم َ انّما تُجْزَو ْن َ ما كُنْتُم تَعمَلو ْن » .

« يا أيها الذين كفروا » بشرائعنا ورسلنا وثوابنا وعقابنا « لا تعتذروا اليوم » فانه لا ينفع الندم والمعذرة في هذا اليوم حيث بلغناكم كل شيء فلم تؤمنوا به فاصبحتم مستحقين لهذا العذاب وما ظلمناكم فانه « انما تجزون ما كنتم تعملون » فعاقبناكم على وفقه فأنتم ظلمتم انفسكم وحق لكم هذا العذاب .

ثم بعد ما ذكر الله تعالى شدة نار جهنم وغلظة قلوب من وكلوا عليها وحال الكافرين يوم القيامة من الندامة التفت الله تعالى الى المؤمنين وأمرهم بالاجتناب عما يدخلهم هذه النار والاتيان بما يقيهم منها فقال تعالى :

« يا أيّها الّذين َ آمَنُوا توبُوا الى الله تَو ْبة ً نَصُوحاً عَسى

رَبُّكُمْ انْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْري منْ تَحْتِها الانْهارُ يومَ لا يخزي الله النَّبيَّ والّذينَ آمَنوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعى بَيْنَ أيْديهمْ وبأيْمانِهِمْ يَقولونَ رَبَّنا أتمِمْ لنا نورَنا واغْفِرْ لنا انّكَ على كُلِّ شيء قديرٌ » •

« يا أيها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحاً » توبة خالصة وهي عبارة عن الندم على ما فعل من الذنب والخروج عنه والعزم على عدم العود اليه والامر في « توبوا » بالنسبة للمؤمن العاصي على حقيقته وهو وجوب التوبة عليه ، وبالنسبة لمن لم يعص هو الدوام والثبات على عدم المعصية والتوقي منها • وفيه اشارة الى ان العصمة للانبياء فقط وانه لا يسلم مؤمن من خطأ فكل الناس خطاؤون وافضل الخطائين التوابون ، فالمطلوب منهم التوبة عن المعصية لا عدم صدورها عنهم قط وابدا ، فتوبوا الى الله توبة نصوحاً ايها المؤمنون فان تبتم « عسى ربكم » بعد التوبة « ان يكفر عنكم سيئاتكم » اي ان يستر ذنوبكم بالمغفرة عنها بالتوبة وعسى للتحقيق فمعناه ان الله تعالى يغفر عن ذنوب التائبين والآيات والاحاديث المبشرة بتكفير التوبة للذنوب كثيرة « ويدخلكم » بسبب التوبة وبعد العفو عن الذنوب « جنات تجري من تحتها الانهار يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه » اي يدخلكم تلك الجنات « يوم لا يخزي الله » اي لا يوقع الله النبي ولا « الذين آمنوا معه » في الخجل وذلك فان الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم والمؤمنون كلهم يعدون الصالحين بنعم الله وثوابه يوم القيامة ويوعدون الفاسقين بنقم الله تعالى وعقابه في ذلك اليوم فلو لم يفعل الله ذلك لخجل الرسول والمؤمنون من عدم تحقيق وعدهم ووعيدهم كما قالوا فلا يخزيهم الله ويفعل ذلك يوم القيامة وفي ذلك اليوم يكون الرسول والمؤمنون « نورهم » ضياءهم « يسعى » يمشي لينور لهم الطريق يوم الحشر وعلى الصراط « بين أيديهم » اي أمامهم « وبأيمانهم » اي وفي يمينهم وذلك لان في ذلك اليوم يقع الناس في ظلام فيخلق الله تعالى لكل مؤمن نورا بقدر أعمالهم يهتدي به الى الطريق • قال القرطبي : عن ابن مسعود انه قال : يؤتون نورهم على قدر اعمالهم فمنهم من يؤتى نوره كالنخلة ومنهم نوره

كالرجل القائم وادناهم نورا من نوره على ابهام رجله فيطفأ مرة ويوقد أخرى. وقال قتادة : ذكر لنا ان النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال : ان من المؤمنين من يضيء نوره كما بين المدينة وعدن او ما بين المدينة وصنعاء ودون ذلك حتى يكون منهم من لا يضيْء نوره الا موضع قدميه ، قال الحسن : ليستضيئوا به على الصراط وقال مقاتل ، ليكون دليلا لهم الى الجنة . ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى في سورة الحديد الآية ١٣ــ١٥ « يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب * ينادونهم الم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الاماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور * فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأويكم النار هي مولاكم وبئس المصير » وسيأتي تفسيرها عند تفسيرنا لسورة الحديد ان شاء الله تعالى .

« يقولون » اي المؤمنون « ربنا اتمم لنا نورنا » أدم لنا نورنا الى ان نصل الى الجنة . قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما هذا دعاء المؤمنين حينما اطفأ الله نور المنافقين . « واغفر لنا انك على كل شيء قدير » من العذاب والثواب لكل أحد فانك مالكهم تتصرف فيهم حسبما تشاء .

« يا أيُّها النّبيُّ جاهِدِ الكُفّارَ والمُنافقينَ واغْلُظْ عَليْهِم ومَأواهُمْ جَهَنَّمُ وبِئْسَ المصيرُ » .

بعد ان ذكر الله تعالى وصف جهنم وحذر الكافرين منها وأمر المؤمنين بالمتوبة الى الله ووعدهم بالجنة فلم يفد كل ذلك الوعظ والانذار والتبشير الكافرين شيئا ولم يزدادوا سوى الكفر والعداء لهذا الدين ولمن جاء به وللمؤمنين بعد ذلك أمر تعالى نبيه بجهادهم فقال « يا أيها النبي جاهد الكفار » الذين أعلنوا كفرهم . « والمنافقين » وهم الذين يتظاهرون بالاسلام وهم كافرون به في الحقيقة . « واغلظ » اشدد عليهم في الدنيا . « ومأواهم » ومرجعهم يوم القيامة . « جهنم وبئس المصير » وقبح المصير الذي يصيرون اليه وهي جهنم .

ثم ان كثيرا من الناس ينقصهم الخوف من عذاب الله تعالى ومن دخول جهنم بسبب ان لهم صلة وقربى للنبي او لصالح من الصلحاء فأشار تعالى الى أن الصلة او القربى ليس لها اي تأثير فلا ينجو من استحق العذاب بسبب صلته الى الصالحين ولا يهلك ويعذب من وجد فيه الصلاح بسبب صلتـــه الى الفاسقين بل كل انسان مرهون بعمله ويجزي حسب ما عمل من خير خيرا مهما كانت صلته وعلى الشر عذابا مهما كانت صلته وضرب الله لذلك ثلاثــة أمثلة فقال تعالى .

« وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امرأةَ نُوحٍ وأمرأةَ لُوطٍ كانتا تحتَ عَبْدين منْ عِبادِنا صالحَيْن فخانَتاهُما فلم يُغْنِيا عنْهُما مِنَ اللهُ شيئا وقيل ادْخُلا النّارَ مع الداخِلينَ » .

« ضرب الله مثلا » اي ذكر الله تعالى على سبيل المثل والتشبيه « للذين كفروا » وأثبت لهم بهذا المثل ان الصلة الى الصالحين لا تنجي ولا تفيد ما لم تقترن تلك الصلة بصفة ذلك الصالح من الايمان والتقوى فذكر لهذا المثــل « امرأة نوح وامرأة لوط » عليهما السلام فان هاتين المرأتين « كانتا تحت » اي زوج « عبدين من عبادنا صالحين » وهما نوح ولوط « فخانتاهما » فلــم تؤمنا بهما فكانت امرأة نوح تقول لنوح انه مجنون وتتفق مع الكافرين في فى صد الناس عن الايمان به وامرأة لوط تخبر القوم بمــن نزل ضيفا على لوط وتدعوهم الى ان يعملوا السوء بالضيف . « فلم يغنيا » اي فلم يغن نوح ولوط « عنهما » عــن زوجيهما « من الله » شيئا اي لم يستطيعا ان يدفعــا عنهما العذاب بل « وقيل » للمرأتين « ادخلا النار » جهنم « مع الداخلين » مع الكافريــن الذيــن يدخلونها .

ثم بعد ان ذكر الله تعالى مثالين لصلة الكافر الى الصالح وانها لم تفــد صاحب الصلة شيئا اراد ان يذكر مثالا لصلة المؤمن الى الكافر وانها لا تضر صاحب الصلة شيئا فقال تعالى :

« وضربَ الله مثلاً لِلَّذين آمَنُوا أمْرأتَ فِرْعَــوْنَ اذْ قالَتْ ربِّ ابْنِ لي عِنْدكَ بَيْتاً في الجنةَ ونَجِّني مِنْ فِرْعَونْ وعمليــه ونَجّني مِنَ القَوْمِ الظّالمينَ » .

« وضرب الله مثلا » اي وذكر الله تعالى مثالا « للذين آمنوا » وبين فيه ان صلتهم مع الكافرين لا يضرهم شيئا مالم تقترن تلك الصلة بمعصية لاجلها فذكر لذلك « امرأة فرعون » وهي آسية والتي كانت تكره فرعون لكفره ودعت من الله تعالى « اذ قالت رب ابن لي عندك بيتا في الجنة ونجني من فرعون » بفصل منه والتفريق بيننا « ونجني من عمله » من كفره وظلمه « ونجني من القوم الظالمين » وهم اتباع فرعون فنجاها الله تعالى فتوفيت بعد هذا الدعاء كما يروى وأدخلها الجنة ولم يضرها صلتها الى فرعون ثم ذكر تعالى مثالا آخر بين فيه ان العبرة بالعمل والايمان والصلاح والتقوى لا بالصلة فذكر لذلك السيدة مريم فانها قبلت من عند الله تعالى من خلص عباده بسبب تقواها وطاعتها لربها فقال تعالى :

« ومَرْيَمَ ابنَتَ عِمْرانَ التي أحْصَنَتْ فَرْجَها فَنفخْنا فيهِ مِنْ رُوحِنا وَصدَّقَتْ بِكلماتِ ربِّها وَكُتُبِهِ وكانَتْ مِنَ القانتين » .

ثم ذكر الله تعالى مثالا بين به ان العبرة بالعمل والايمان فذكر لذلك « مريم بنت عمران التي احصنت » اي عصمت « فرجها فنفخنا فيه » في فرجها « من روحنا » وهو روح عيسى عليه السلام ينفخ جبريل فيه « وصدقت » وآمنت « بكلمات » بمقدرات « ربها » وانه يستطيع ان يخلق منها ولدا دون ان يمسها بشر « وكتبه » وآمنت بكتب الله تعالى واحكامه « وكانت » بسبب ذلك معدودة عند الله تعالى « من القانتين » من العابدين المقربين الى الله تعالى .

« تنبيهات »

الاول : ذكر تعالى المثل الاول لافادة ان صلة الكافر بالمؤمن لا تفيده شيئا ما لم يقترن بالايمان والتقوى .

الثاني : ذكر المثل الثاني لافادة ان صلة المؤمن بالكافر لا يضره شيئا ما لم تؤثر في ايمانه وتقواه .

الثالث : ذكر المثل الثالث لافادة ان العبرة بالعمل لا بالصلة فان مريم عملت وعبدت فأصبحت من المقربين الى الله تعالى . واظهر الله تعالى منها معجزة كبيرة هي وجود عيسى بدون والد وأصبحت أما لاحد الرسل

أولى العزم رغم انها نشأت يتيمة فقدت الوالدين .

الرابع : قال تعالى : « وكانت من القانتين » ولم يقل من القانتات للاشارة الى انها ساوت الرجال العابدين المقربين الى الله تعالى وفاقت جميع النساء .

الخامس : ذكر في المثالين الاول والثاني صلة المرأة بالرجل دون الولد بالوالد أو بالعكس أو صلة أخرى وذلك لان المرأة الصق الناس بالانسان وأقربهم اليه في العشرة والحياة فاذا لم تفد ولم تضر صلتها فغيرها أولى. وذكر في المثل الثالث الامرأة ايضا للاشارة الى انه اذا بلغت المرأة بعملها هذه الدرجة فالرجل يبلغ بالاولى لانه من القاعدة العامة ان الرجل خير من المرأة باعتبار حنيقتها وماهيتها الا يرى انه لم يأت منهن رسول ولا نبي فأعمل أيها المسلم ولا تفتر بكل صلة ولا قرابة ولا حسب ولا نسب ولك في قوله تعالى « يوم لا تجزي نفس عن نفس شيئا والامر يومئذ لله » خير دليل وفي قوله تعالى « يوم لا يجزي والد عن ولده شيئا ولا مولود هو جاز عن والده شيئا ان وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور » .

أكبر برهان في ان الصلة والقرابة لا تنفع وان العبرة كلها بأيمان المرء وعمله وحسن الخاتمة .

متعنا الله تعالى بالايمان الكامل والعمل لصالح
ورزقنا السعادة في الدنيا والآخرة آمين
والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام
على خير خلقه محمد وآله وصحبه
أجمعين الى
يوم الدين
آمين

٢٣ ربيع الاول ١٤٠٦
٦ كانون الاول ١٩٨٥

أشـــكر نجلي قرة للاعـين أعني « حسينا » انـــه في مأمن
مـــن كـل مكـروه باذن الله ومن جميع الذنب والمنـــاهي
بيض لي هـــذي بخـط راق طوبى له مـن هـذه الاخلاق
أنـا له الا له كـــل خـير حمباه كل فتنـة وشـــــر
وانـــه المجيب للدعــــاء في حـــالة الســـراء والضراء

صلى على سيدنا المطـاع
وآله والصحب والاتباع
آمين

# « الفهرســت »

| الصفحة | الموضوع |
|---|---|
| | الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون والامر بالجهاد وبيان ثمرته في الدنيا والاخرة . |
| ٥٨ ـ ٦٣ | سورة الجمعة وسبب تسميتها وسبب تصديرها بالتسبيح وبعض اسماء الله الحسنى وسبب تشبيه اليهود بالحمير وقولهم انهم اولياء الله والرد عليهم . |
| ٦٣ ـ ٧٥ | سورة المنافقون وسبب نزولها وذم المنافقين وفضح نفاقهم وخبث طويتهم . |
| ٧٥ ـ ٧٧ | النهي عن الغفلة بسبب الاموال والاولاد عن الذكر والامر بالانفاق قبل الموت والندابة حينذاك . |
| ٧٧ ـ ٨٠ | سورة التغابن وسبب تصديرها بالتسبيح وتفسير قوله تعالى ( خلق السموات والارض وصوركم الى اخر الاية والاستدلال به على قدرة الله وعلمه وعلى انه يجب توحيده بالعبادة والطاعة . |
| ٨٠ ـ ٨٣ | التذكير باحوال الامم السابقة والامر بأخذ العبرة من حالهم وبيان احتجاج الكافرين على عدم ايمانهم بالرسل لانهم ورد الله تعالى على ذلك . |
| ٨٣ ـ ٨٧ | اخبار الله تعالى بحقية يوم القيامة والامر بالايمان بالقرآن والوعيد على عدم الايمان بالعقاب يوم الاخرة والوعد على الايمان به بالثواب الجزيل وتفسير قوله تعالى ( ما اصابن من من مصيبة الا بأذن الله ) وبيان سبب كون العبد مسؤولا . |
| ٨٧ ـ ٩٠ | تفسير قوله تعالى ( ان ازواجكم واولادكم عدوا لكم ) والامر بعدم ارتكاب المعاصي لاجلهم وبيان الله تعالى برزق المال والاولاد لاختبار العبد .<br>الامر بالانفاق في سبيل الله وبيان ثمرة ذلك . |
| ٨٧ ـ ٩٢ | سورة الطلاق وبيان تقسيم الطلاق الى سني وبدعي وحكم كل منهما وبيان اقسام العدة وما للزوجة على الزوج من حقوق مدة العدة . |
| ٩٢ ـ ٩٥ | تفسير قوله تعالى فاذا بلغن اجلهن الخ وبيان واجب المطلق قبل تمام العدة وحكم الاشهاد على الرجعة او الطلاق مع حكاية |

| الصفحة | الموضوع |
|---|---|
| | لطيفة وبيان سبب نزول قوله تعالى ( ومن يتوكل على الله فهو حسبه ) . |
| ٩٥ ــ ١٠٠ | بيان كراهية الاسلام للطلاق وبيان سبب مشروعيته . وبيان عدة الاية والتي لم تحصى وذوات الحمل . وبيان حقوق الزوجة اثناء العدة . وحال ارضاعها للولد . |
| ١٠٠ ــ ١٠٣ | الوعيد لكل امة خرجت عن شريعة الله تعالى وتفسير قوله تعالى الله الذي خلق سبع سماوات طباقا والارض مثلهن . |
| ١٠٤ ــ ١١٠ | سورة التحريم وبسبب نزول قوله تعالى ( يا ايها النبي لم تحرم ما احل الله لك ) وبيان حكم من حرم على نفسه حلالا وبيان حدوث بلبلة في بيت البني وحل الله تعالى لها . |
| ١١٠ ــ ١١٦ | الامر بالتقوى من نار جهنم . وبيان عدم قبول المعذرة يوم القيامة والامر بالتوبة وبيان الثواب عليها . والامر بالجهاد وبيان ان العبرة بالايمان والعمل لا بالصلة والقربى والنسب وضرب في لمثال ذلك . |

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغـداد
٤٨٠ لســنة ١٩٨٨

سعر النسخة ١٢٥٠ فلسا

مطبعة العمال المركزية / ١٩٨٨